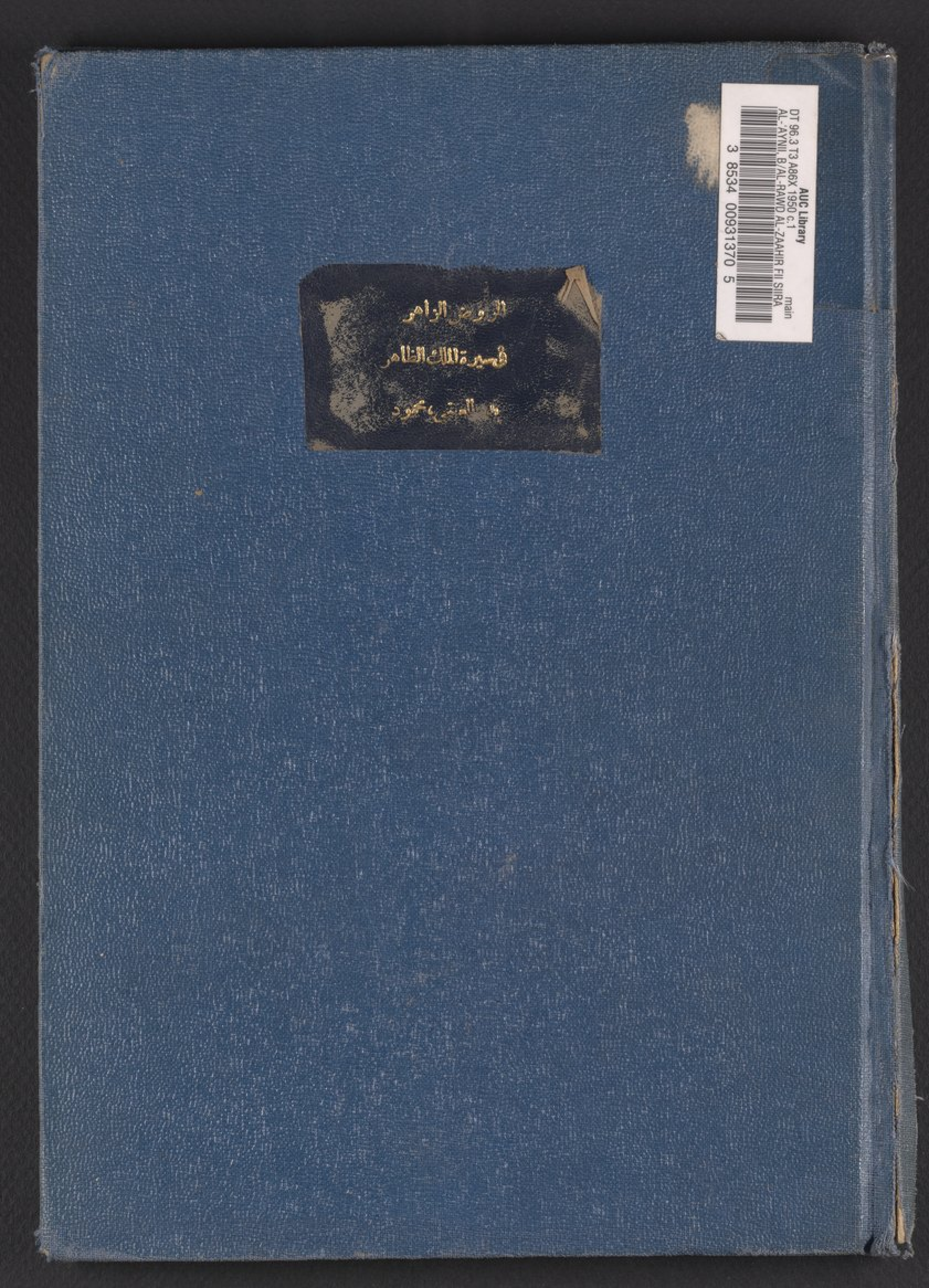
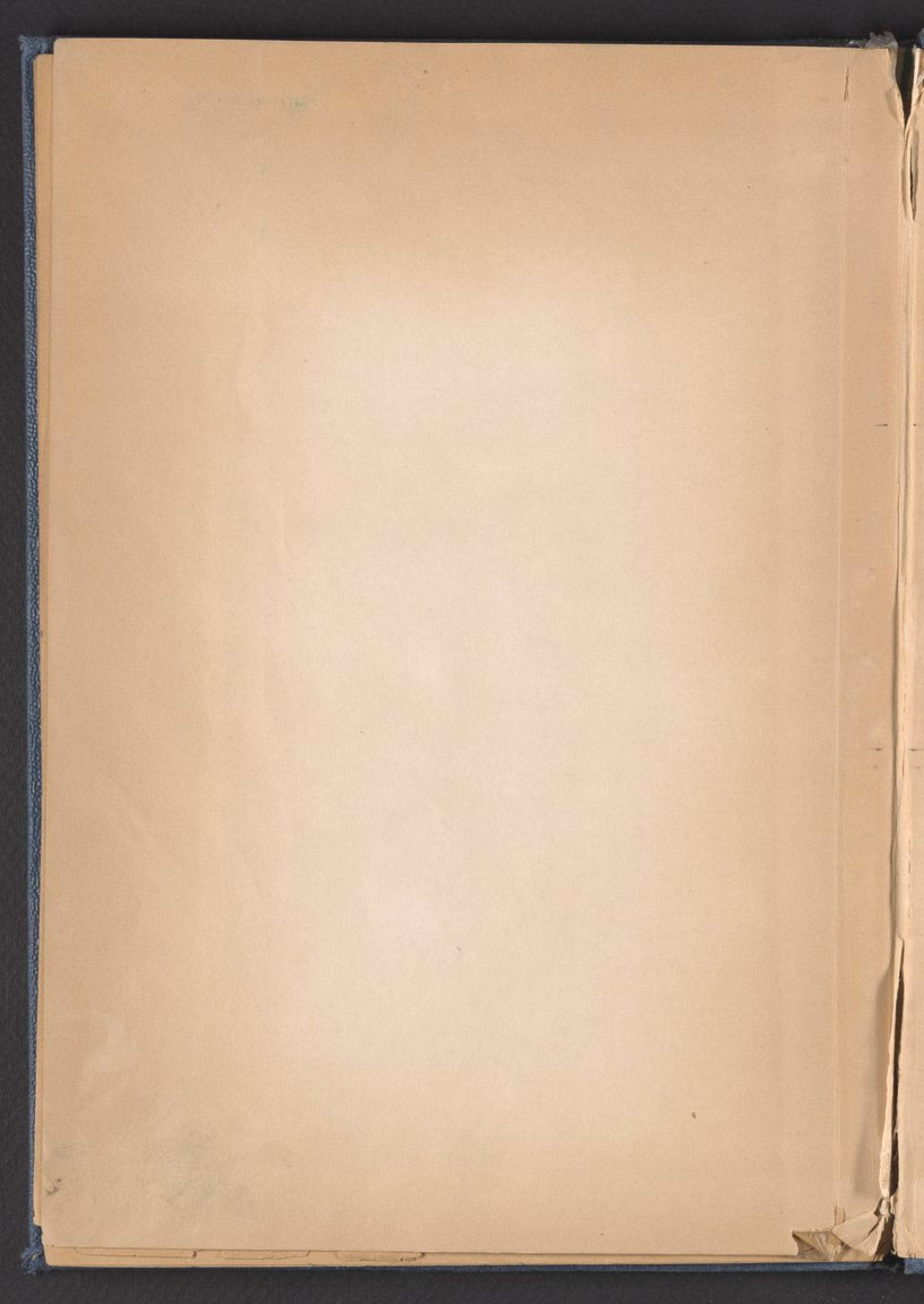

الروض الزاهر
في سيرة الملك الظاهر
العيني محمود
AUC Library
main
DT 96.3 T3 A86X 1950 c.1
AL-'AYNI, B/AL-RAWD AL-ZAAHIR FI SIIRA
3 8534 00931370 5


FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO
من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة



الروض الزاهر

فى سيرة الملك الظاهر

(ططر)

للعلامة محمود بن أحمد المعروف بالبدر العينى

المتوفى سنة ٨٥٥ هـ

رحمه الله

قـــدم له

صاحب السماحة العلامة

الشيخ محمد زاهد الكوثرى

الناشر

« دار الانوار » للطبع والتجليد

١٩ نهاية شارع بيبرس بالحمزاوى

سنة ١٣٧٠ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة عن هذا الكتاب

الحمد لله ، وصلوات الله وسلامه على سيدنا محمد رسول الله . وعلى آله وصحبه وكل من تابع نور هداه . وبعد فان الإمام العلامة المحدث الفقيه المؤرخ الشيخ محمود بن أحمد المعروف بالبدر العيني المتوفى سنة ٨٥٥ هـ عن ثلاث وتسعين سنة من علماء مصر الأفذاذ المكثرين من التأليف فى العربية والفقه والحديث والتاريخ وسائر العلوم : فشرحه على الهداية من أمتع شروحها ، وشرحه على صحيح البخارى من أوسع ما كتب فى شرح هذا الكتاب ، وشرحاه على معانى الآثار للطحاوى من أحسن ما ألف فى أحاديث الأحكام ، وتاريخه الكبير المسمى (عقد الجمان فى تاريخ الزمان) من أفيد ما برز للوجود فى التاريخ العام من تراجم وأنباء ؛ وهو فى أربعة وعشرين مجلداً ، وتاريخه الأوسط فى ثمانية مجلدات ، وتاريخه الصغير فى مجلدين ، ومختصره لتاريخ دمشق لابن عساكر فى عشرة مجلدات ، وشواهده الكبرى لا يستغنى عنها باحث فى شواهد العربية ، وله فضل عظيم على تاريخ مصر حيث سجل أنباء مصر فى تاريخه الكبير ، وكتب آثاراً خاصة فى سير بعض ملوكها الذين عاصرهم كالظاهر برقوق والمؤيد شيخ والظاهر ططر والأشرف برسباى فأنار كثيراً من نواحى حياتهم الشخصية والسياسية ، وأربعتهم من الجراكسة فالسيف المهند فى سيرة الملك المؤيد (شيخ) من محفوظات دار الكتب المصرية ، والروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر (ططر) مما صوره قسم الثقافة من الجامعة العربية فى عداد الكتب المتخيرة التى صورها من شتى الأقطار مما يوجب الشكر الجزيل لهم باسم العلم ، والحديث عن الجركس طويل الذيل ، وقد اتفقت كلمة علماء السلالات البشرية فى العصور الحديثة على أنهم من أصفى نموذج للجنس الأبيض القوقاسى المعروف عند الجغرافيين

والنسابة ، وقد توسع الأستاذ جرجى زيدان الكاتب المشهور فى بيان دائرة شمول الجنس الأبيض القوقاسى وتنقلهم فى القارات فى كتابه الخاص بالسلالات البشرية ، ومع ذلك كله لم يخل نسب (الجركس) من خلاف ، ولذا قلت فى (نبراس المهتدى) ص (٨) عند التحدث عن نسبة (جركسى) : « نسبة إلى (جركس) وهو من الجنس الأبيض القوقاسى ، ويعده الغربيون من الآريين ، وقد أطال الكلام الجنرال عزت باشا فى مؤلف خاص فى التدليل على أن الجركس من بقايا الحيثيين ويراهم ابن خلدون والبدر العينى من شعوب الترك ؛ يريدان أنهم من الجنس الأبيض المستترك ، لأنه تحقق عند الباحثين ان الترك فريقان : فريق الترك من الجنس الأصفر المغولى ، وفريق الترك المستترك من الجنس الأبيض ، كالعرب المستعربة إزاء العرب العاربة ، ففى المجالس السلطانية الغورية وتاريخ ابن إياس ذكر أنهم من الغساسنة ، وفى (قهر الوجوه العابسة بذكر نسب الجراكسة) أنهم من بنى عامر من قريش والله أعلم . على أن الناس سواسية لا تفاضل بينهم إلا بالتقوى اهـ » . ونزوح بقايا الغساسنة إلى جبل الجركس بين بحرى الخزر والأسود (بنطس) فى عهد سيدنا عمر رضى الله عنه مما نص عليه كثير من المؤرخين ، كما أن رحيل نحو مائة ألف شخص من العرب فى عهد الدولة الأموية إلى جبل القوقاس وسكناهم هناك مما سجله أصحاب كتب الفتوح ، ولم يكن الذين نزحوا إلى بلاد العرب من القوقاس فى العصر السابق بأكثر من الذين كانوا انتقلوا من هنا إلى تلك الديار فى العصور الأول ، ولله حكمة بالغة فى كل ما قضى وأبرم .

وقد ذكر الأستاذ حسام الدين الأماسى فى تاريخ أماسيه (٢ـ٤٧) ما ترجمته : (أن آتيغ خان ابن كمير خان ـ من سلالة الحيثيين حكام الأناضول ـ تزوج بالسيدة جيرغاس ـ أخت آييق خان ابن كون خان ابن اوغوز خان ، وأولادهما هم الجراكسة ؛ فسموا الجركس بتخفيف جيرغاس ، وسموا أيضاً آتيغه وآديغه بالنسبة إلى آتيغ خان ، وقيل فى تعريب آديغة : اذ كش) اهـ وهذا التخريج فى عهدة الاستاذ الاماسى . وفى دائرة المعارف للأستاذ فريد

وجدى (٣ — ٨١) : (الجركس : جيل من الناس يسكنون حوالى جبال القوقاس[١] . . . وهم معدودون أكمل بنى آدم خلقة وأحسنهم وجوها ، وأشجعهم قلباً ، وأشدهم للشدائد مقاومة) ومن المعروف أن (تركان)[٢] بمعنى شبيه الترك ، وهم الآريون الذين اندمجوا فى الترك الذين هم فطس الأنوف ، صغار العيون ، ووجوهم كالمجان المطرقة — كما ورد فى الحديث — بخلاف الآريين ، وقد نص الأستاذ زكى وليدى المغولى فى تاريخ آسيا الوسطى أن الآس والسغد والطخاريين والتراكمة والهياطلة من البيض الذين نزحوا من الغرب إلى شرق بحر الخزر فاندمجوا فى بنى قومه المغول والططر ، فيكون هؤلاء من البيض المستتركين لا من المغول والططر الذين كانوا احتكروا اسم الترك فى ذلك الزمن والله أعلم . واسم (ططر) فى كتاب (الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ططر) اسم هذا الملك لا أنه من جنس الططر كما يظهر من الكتاب نفسه ، وكان من عادة الجراكسة كباقى الأقوام الشمالية تسمية الوليد باسم أول طارق عند ولادته فسمى ططر حيث طرق ططرى عند ولادته ، وكذلك (أيبك) — بفتحتين فضم وسكون — بمعنى القبيح الممتلىء ، و(حبك) — بفتح فضم وسكون — بمعنى الكلب الممتلىء ونحوهما من الاعلام ، فالعز أيبك التركمانى لم يكن تركمانى الجنس بل كان تركمانياً ولاء فقط حيث كان من موالى آل رسول التراكمة ، وعده رومياً عند بعض مؤرخى الغرب سهو من كون سميه عز الدين أيبك الامير روميا وهو لم يتول الملك وإنما كان أميراً فقط كما يظهر من ترجمته فى كتب الثقات ، فيكون تلقيب الدولة البحرية بالدولة التركمانية خطأ صراحا جملة وتفصيلا ، وقد قال صاحب قطف الزهور : إن أيبك أول ملوك الجراكسة وأن بيبرس[٣]

---

(١) بمعنى جبل الآس وهو الحد الفاصل بين آسيا وأوربا (ز)

(٢) راجع تاريخ أبى الفداء عند ذكره للتركمان (ز)

(٣) ولم يكن تأسيس بنيان الأزهر فى عهد العبيديين على التقوى بل ليكون دار دعوة إلى الباطنية والالحاد حتى اتخذوه محلا لاستنزال اللعنات على خيار

البندقدارى من أشهر ملوكهم ، ومثله فى تاريخ الكافى ، وذكر البدر العينى فى هذا الكتاب ان الجاشنكير ولاجين أيضاً منهم . وأما اهتمام قلاوون بالجراكسة وتخصيصهم بالتعليم فى طباق القلعة فأمر معروف ، وهو نفسه من قبيلة برج من قبيلة وبخ الجركسية فاليها كانت نسبة المماليك البرجية لا إلى أبراج القلعة كما توهم ؛ لانها مكان الحراسة لا مكان الدراسة ، وقول برقوق فيما كتبه إلى تيمور فى صبح الاعشى (٧ — ٣١٣) : (وجنسنا جركس جنس ملوك الإسلام السالفين خدام الحرمين الشريفين) صريح فى أن قبله ملوكاً من الجركس . وإن لم يكن كون الملك جركسياً شرطاً فى توليه الملك قبل عهد برقوق . والإفاضة فى ذلك تخرجنا عن الايجاز المطلوب هنا ، وعد هؤلاء من الأتراك أو القبجق لا ينافى كونهم من الجراكسة لأن الترك يعمهم عند مؤرخى العرب ، والقبجق مساكنهم فى جبال وغياض وراء دربندشروان على ماذكره ابن شيخ الربوة فى نخبة الدهر فيفيد القبجقى معنى القوقاسى على هذا البيان على أن القبج والقبق من أسماء جبل القوقاس اختصارا من القبجق بحذف القاف الثانية مرة وحذف الجيم مرة أخرى ، وقال عمرو بن سراقة الباهلى :

وألجمنا الجبال جبال قبج ‌ ‌ ‌ ‌ وجاور دورهم منا ديار

كما ذكره ياقوت فى معجم البلدان عند ذكر باب الأبواب ، يريد جبال القوقاس ، وقال البحترى :

مغلق بابه على جبل القبـ ‌ ‌ ‌ ‌ ـق إلى دارتى خلاط ومكس

الصحابة — رضى الله عنهم وقبح مبغضيهم — ثم ترك مهملا لاتقام فيه الجمعة والجماعات قرنا كاملا إلى أن جدده بيبرس وحمل رجاله الأبرار على المشاطرة فى إحيائه حتى أصبح منار الهدى ومعقل السنة والباعث الأوحد لزعامة مصر على العالم الاسلامى ، تتوالى عناية ملوك أهل الحق بتعهده وإدرار الخيرات عليه فقام ينشر العلوم على أتم وجه على توالى القرون ودام فخرا خالدا إلى اليوم صانه الله عن الفتن وأسباب الردى وأدامه منارا للهدى (ز)

يريد أيضا جبل القوقاس . وأما تسمية صحراء الغز الواسعة الأرجاء فى آسيا الوسطى باسم صحراء قوفشاخ فتسمية محدثة[1] بعد استيلاء آل جنكيز على القوقاس وتلك المروج فى شماليه إلى النهرين ولجا ودون بين البحرين الخزر والازق حيث أسسوا عاصمة ملكهم فى ضفة نهر وولجا قريبا من مصبه فى بحر الخزر بمرحلتين وهى المعروفة بسراى باتو . وكان مابين النهرين والبحرين إلى السفوح الشمالية من القوقاس يسمى بدشت قبجق قبل استيلاء المغول على تلك الجهات ، وقفجاق موضع فى كاشغر وقوفشاخ فى آسيا الوسطى لاصلة لها بقبجق القوقاس كما تجد تفصيل ذلك فى ترجمة تاريخ القوقاس للاستاذ المرحوم عبد الحميد غالب بك (ص٦٦) والنصوص التاريخية المتعلقة بتلك المباحث ربما تنشر فى مدة غير بعيدة باذن الله تعالى خدمة للحقيقة والتاريخ ، والله سبحانه هو الموفق .

فى ٢٧ من جمادى الأولى سنة ١٣٧٠ هـ محمد زاهد الكوثرى

---

(١) نص على حدوث تلك التسمية بعد استيلاء المغول البروفسور بارتولد فى محاضراته عن آسيا الوسطى فى جامعة الآستانة (ز)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى ايد الاسلام بعدله الظاهر، وأيد عبيده المسلمين بعبده الظاهر. وأظهره على كل مارق وفاجر. ومكنه من كل مارد وغادر، وجمع شمل المؤمنين برأيه الباهر. من غير طعن بزج وضرب بباتر. وأنار شعائر الدين بعلمه الزاهر. وشرائع الاسلام بعدله السائر: حتى أضاء نجم الاتفاق فى فلكه الدائر. وانخمد سور الشقاق فى برجه الهائر. وعادت أهل الطاعة بعطاء متواتر. وخابت أهل البغى من هذا الحظ الوافر. واستبشر من كان ماريا عن نفاق ثابر. وانكمد من فى قلبه شىء من حسد نائر. فسبحان من منّ على عباده من فضله المتكاثر. بهذا الملك الذى عينه رحمة للبادى والحاضر. وزينه بحلم وعلم وعدل وفضل غازر. والصلاة على نبيه الزكى الطاهر. محمد المصطفى أشرف كل وارد وصادر. وعلى آله وصحبه المستأثرين بكل فخر فاخر. مابدر إلى الطاعات بادر.

أما بعد فان عافى رحمة ربه الغنى. أبا محمد محمود بن أحمد العينى عامله ربه بلطفه الجلى والخفى. يقول: إن من جملة منن الله تعالى علىّ أنى كنت رزقت التمثل بين يدى هذا الملك من قديم الزمان. والتحلى بصحبته المنيفة قبل هذا الأوان. فرجانى من الله تعالى أن يكون ذلك سببا لنصب ما خفض من حالى. ورفع ماجزم بالى من كسر بالى. وجر مايصلح شأنى بلطفه. وإبدال الهموم بالسرور بعطفه. إنه على ذلك قدير. وبالاجابة جدير.

ولما جرت العادة باتحاف الملك إلى من كان يصحبه وهو مختف فى الحجاب. وتقديمه إياه على من كان نائيا عن الباب. سيما إذا ظهر استحقاقه لذلك. وقامت بينته على ذلك. أردت تذكير ذلك بتقديم تحفة لحضرته السنية. وخدمته البهية. محتوية على بعض سيرته الشريفة. وأحوال دولته المنيفة. ولكنى أبديت ذلك بوجه عاجل. يعقبه أبسط من ذلك فى الآجل. على

قدر مساعدة الوقت والامكان. لأن ذلك يقتضى أمدا بعيدا من الزمان ، ولكنه تلويح يغنى عن التصريح. وتلميح يستغنى به عن التوضيح. وفى هذا الوقت رأيت هذا المقدار عزماً علياً. وحتما واجباً مقضيا . وكيف وهو ملك إن شاء الله يفتخر به ملوك الآفاق . ويعلو عليهم علو الشمس على النيرات فى الاشراق. وينقاد اليه كل مطيع وعاصى. وكل دان وقاصى. ويرتفع برايات عدله منار الدين. وينتشر بأعلام فضله آيات الحق المبين. ويتنور بأحكامه الزاهرة أغصان الحق والانصاف. وينخمد بجلالة هيبته نار الظلم والاعتساف. ويتفرق بعظمة سطوته جموع أهل الفساد من كل الأصناف. لازال مدى الدهر مستمرا اقباله. ولم يزل يتزايد طول الأيام كماله. ورفع الله قدره فى الأفلاك. وعظم مجده بين الأملاك.

وترجمتها بالروض الزاهر. فى سيرة الملك الظاهر. وجعلتها على عشرة فصول. الأول فى جنسه وأصله . والثانى فى اسمه وما يدل عليه حروفه. الثالث فى كنيته وما يدل عليه ومن تكنى به من الملوك. الرابع فى لقبه ومن تلقب به من الملوك. الخامس فى كونه عاشر السلاطين الترك الافاقين ومافيه من البشارة له. السادس فى استحقاقه السلطنة وتعينه لها. السابع فى أوصافه الجميلة وأخلاقه الحميدة. الثامن فى ماينبغى له أن يفعل ومالا يفعل. التاسع فيمن يوليه على خواص نفسه وعلى الرعية. العاشر فى تاريخ سلطنته ومادل عليه تاريخه. فها أنا أشرع فى بيانه . وعلى الله أتكل فى شانه .

الفصل الأول

فى جنسه وأصله :

إعلم أن الله تعالى خلق ثمانية عشر ألف عالم ، الدنيا عالم منها ، والعمران فى الخراب كفسطاط فى البحر ، وميز من بينهم أربع طوائف وهم الملائكة والإنس والجن والشياطين ثم جعل هذه الثلاثة : عشرة أجزاء ، تسعة الشياطين ، وواحد الانس والجن ، ثم جعل هذين الصنفين عشرة أجزاء ،

تسعة الجن وواحد الانس ، فالملائكة من النور ، والجن والشياطين من النار ، والأنس من التراب .

والإنس كلهم أولاد آدم عليه السلام ولكن انقرضوا كلهم بطوفان نوح عليه السلام ولم ينج منه إلا أصحاب السفينة ، وهم ثمانون نفسا على قول الجمهور . ثم لما استقرت بهم على الجودى خرجوا منها وبنوا قرية سموها قرية الثمانين فى أرض الجزيرة .

وعاش نوح عليه السلام بعد ذلك ثلثمائة وخمسين سنة ، وجميع عمره ألف وسبعمائة سنة وثمانون سنة . ثم هلكوا ولم يبق منهم إلا نوح وأولاده الثلاثة وهم سام وحام ويافث وأزواجهم ولما حضرت نوحا الوفاة أوصى ابنه سام وجعله ولى عهده وقسم الأرض بين أولاده الثلاثة . فجعل لسام وسط الارض وفيها الحجاز واليمن وبيت المقدس ومصر والشام ، وفيها النيل والفرات ودجلة وسيحان وجيحان وجعل لحام بلاد المغرب . وجعل ليافث الجنوب وبلاد المشرق . وجميع الامم المتفرعة من هؤلاء الثلاثة ويافث أكبرهم وحام أصغرهم وسام أوسطهم .

فولد لسام خمسة من الاولاد وهم ارفخشذ ولاوذ وارم وآشور وعيلام وولد لارفخشذ شالخ ولشالخ عابر ومن عابر العبرانيون . وولد له ولدان فالغ ويقطن ، فمن فالغ ابراهيم الخليل عليه السلام ، ومنه اسحق واسماعيل عليهما السلام ، ومن اسحق يعقوب وعيصو ، فمن يعقوب بنو اسرائل ، ومن عيصو الروم ، ومن اسمعيل العرب المستعربة ، ومن ذريته نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وولد ليقطن ثلاثة عشر ولدا ومنهم جرهم والهند والسند وسبأ وهم أهل اليمن . وولد للاوذ أربعة أولاد وهم طسم وعمليق وفارس وجرجان ومن العمليق الكنعانيون جبابرة الشام وفراعنة مصر ، وولد لأرم عوض ، ومن ولده عاد ، ومن ولد ارم كاثر ومن ولده ثمود وجديس وأميم وهم العرب العاربة ، وولد لآشور ايران ونبيط وجرموق وباسل فمن ايران الفرس والكرد والخوز ومن نبيط النبط والسريان ، ومن جرموق الجرامقة ومن باسل الديلم والجيل .

وأما حام فولد له مصرايم وكنعان وكوش وقوط ، فولد لمصرايم فلشتين ومن بنيه جالوت وأهل فلسطين ، وولد للكنعان أولاد شتى منهم البربر وأهل أفريقية وولد لكوش الحبشة والنوبة وسائر أنواع السودان .

وأما يافث فولد له سبعة أولاد وهم كومر وياوان وماذاى وماغوغ وطوبال وماشخ وطيراسى . ومن كومر الترك وهم فى الاصل عشرون قبيلة وكل قبيلة منها بطون لايحصون وهى بجنك وقفجاق[1] ، وأغز ، ويماك وبشقرت ، وبسمل ، وقاى ، ويباقو ، وططر ، وقرقز[2] وجكل ، وتخسى ، ويغما ، واغراق ، وجرق ، وجمل ، وايغر ، وتنكت . وخطاى (وهى الصين) وتوغاج . وتسمى ماصين[3]

ومن قبيلة أغز تتفرع التركمان وهم اثنان وعشرون بطنا وأعظمهم قنق ومنهم السلاطين والملوك ومنهم بنو سلجوق بن دقاق ومن ذريتهم الملوك الذين ملكوا بلاد الروم وكان عبور السلجوقية بلاد الاسلام فى شهر ربيع الاول من سنة خمس وستين وأربع مائة .

وأما التركمان الذين يسكنون ببلاد الروم والشام فأصلهم من التركمان الذين جاءوا مع السلطان آلب أرسلان السلجوقى فسكنوا البلاد رحالة ببيوت خركاوات ؛ فطائفة سكنت ببلاد دياربكر ومنهم تركمان قرا محمد وولده قرايوسف وبنو يحمر وبنو يغمر ومنهم طائفة سكنت ببلاد الروم على سواحل البحر الملح فمنهم تركمان ورسخ وأولاد حميدو وسليمان باشاه ومنهم أولاد قرمان وأصلهم من تركمان سكنوا ارمناك من بلاد لارنده ولكن موضع جدهم الاعلى (نوره صوفى) من موضع يقال له قامش .

---

(١) وقبجق القوقاس غيرقو فشاخ آسيا الوسطى فلتراجع ترجمة تاريخ القوقاس (ص ٦٦) فى تحقيق ذلك . والمؤلف ذكر القبائل هنا بنوع من التداخل من غير تمييز بين الجنس المغولى وغيره فالامر يحتاج إلى مزيد بحث فى موضعه (ز)

(٢) قيل أنهم من الجنس الابيض الذى رحل من الغرب إلى الشرق (ز)

(٣) راجع ديوان لغات الترك (١ - ٢٧) (ز)

ومن تركمان الروم أصل عثمان جق وولده أرخان وولده مرادباك وولده أبو يزيد وولده كرشجي يدعى سلطان محمد وأصلهم من موضع يقال له سكت من بلاد أجات ومنهم طائفة سكنت ببلاد الشام والأرمن وهم طائفتان إحداهما يسمى أوج أق . والأخرى تسمى بزأق : ومنهم أولاد دلغادر

ومن جنس الترك الجراكسة وأصلهم أربع قبائل وهم تركس[1] ويقال سركس ، وأركس[2] والآص[3] وكسا[4] وتتفرع منهم بطون كثيرة منهم أباذا وكبكا وجنا وبوله وبزدغو وأسغو وبصجقا وأغجبس وسكاغو وجغا

---

(١) وفى الاصل (حركس) باتصال النقطتين برأس الراء فيظن أنه (جركس) مع أن الصواب (تركس) باعتبار أن هذه القبيلة يسكنون فى حوض نهر (ترك) فى الشمال الشرقى من جبل القوقاس ومن المعلوم أن الشىء لايقسم الى نفسه والى غيره ولايتصور أن يكون المقسم قسما من نفسه (ز)

(٢) بالراء والسين اسم قبيلة تسكن فى ضفة نهر (أركسيس) الشمالية الى أواسط جبل القوقاس من (دربند) إلى قريب من (داريال) وهذا النهر هو النهر المعروف اليوم باسم (آراس) وهو النهر المذكور فى كتب تقويم البلدان للعرب باسم نهر (الرس) وقد يصحف الى (أذكش) ويخرج الى أنه بمعنى آديغه أو أذيغه أو آذكى بمعنى لزكى . ووقع فى الاصل (اذكش) والصواب ماسبق . فتكون هذه القبيلة سكنة الجنوب الشرقى من جبل القوقاس (ز)

(٣) والآص هم الآس الذين يقال لهم (ألان) و (اللان) عند العرب وهذه القبيلة سكنة الجنوب الغربى من الجبل من داريال الى البحر الاسود من آستين وابخاس وبعض الاوار وايبريا الذين يسمون الكرج أيضا باعتبار سكناهم بحوالى نهر الكر (ز)

(٤) وكسا هم سكنة الشمال الغربى من الجبل المذكور الى قوبان وبحر الازق وهؤلاء الاربعة اخوة فى النسب احتضنهم الجبل المذكور بجوانبه الاربعة فسماهم الفرس (جهاركس) ويخفف الى (جاركس) و (جركس) راجع تحقيق هذا التلقيب فى ترجمة تاريخ القوقاس للاستاذ عبد الحميد بك غالب (ص٨٠) وهناك بسط القول فى تلك القبائل الاربع (ز)

وبشزيا وابخاس وأزغا وبغزو وبخ ووقاقا ويميقا وبدس وقوص واريس وصندى وصمدقا وبسنى وقصبغا وخونية وادخان وكرموك .

وأصل مولانا السلطان ثبت الله قواعد دولته من الجراكسة المستأمنين من دولة هرقل . فاذا كان كذلك فلاشك يكون أصله منتزعا إلى العرب وهو عرب غسان .

وبيان ذلك أنه قد زعم بعض الناس أن أصل الجركس من العرب وليس كذلك . وإنما أصل هذا الكلام أن جبلة بن الأيهم لما ارتد عن الاسلام بعد أن قدم على عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأسلم صار إلى هرقل صاحب الروم ولما هرب هرقل من أنطاكية حين فتحها الصحابة رضى الله عنهم فى سنة سبع عشرة من الهجرة وركب البحر وعدى إلى بلاد قسطنطينية هرب معه جبلة ومعه خمس مائة رجل من قومه من عرب غسان فتنصروا كلهم وأقاموا عندهم إلى أن انقرض ملك القياصرة ثم تحيزوا إلى جبال الجراكسة وبلادهم وهى ما بين بحر طبرستان وبحر بنطس الذى يحده خليج قسطنطينية فاختلطوا بالجراكسة فتزوجوا منهم نساء وتزوجت الجراكسة منهم نساء فتوالدوا وتناسلوا وكثرت ذراريهم واختلط بعضهم ببعض ودخلت أنساب بعضهم فى بعض حتى ليزعم كثير من الجراكسة أن أصلهم من نسب عرب غسان .

ومن ذلك يوجد فى الجراكسة غالبا خصال من خصال العرب منها الشجاعة الظاهرة والفروسية الباهرة ، ومنها الصدمة الأولى فى الحروب . ومنها الغيرة العظيمة على الحريم والنساء . ومنها حسن القيام بحق الضيف والضيف عندهم أعز الناس اليهم ومنها أن المستجير بأحدهم لا يضام ولا يناله مكروه ولو كان عليه دم أوطلب ولا يقدر أحد أن ياخذه ولو كان صاحب شوكة . ومنها أن عندهم حدة وزعارة فى أخلاقهم . ومنها أنهم يغضبون سريعا ومنها أن العداوة اذا وقعت بين الطائفتين لم يزالوا على ذلك من قدر منهما على الأخرى يفنى جميعهم فتستمر العداوة بين أولادهم وأولاد أولادهم وكل ذلك من خصال العرب .

ومولانا السلطان خلد الله ملكه سادس السلاطين الجراكسة الذين ملكوا الديار المصرية والشامية والحجازية ؛ فأولهم السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقدارى فى قول[١] وفى قول هو من آص والثانى السلطان الملك المظفر بيبرس[٢] الجاشنكير والثالث السلطان الملك المنصور لاجين[٣] والرابع

---

(١) فيكون جركسيا من غير تعيين قبيلته من بين القبائل الاربع للجراكسة التى ذكرها المصنف وفى القول الآخر يكون من الآص خاصة من تلك الاربع وفى تاريخ ابن ايبك أنه من فخذ (برلى) وبيبرس هذا أعظم ملوك الاسلام بعد صلاح الدين الايوبى فى الذب عن الاسلام حيث صد المغول وأهل الصليب فى آن واحد على ماهو مشروح فى التاريخ حتى قال ابن فضل الله العمرى : لولاه لكان الاسلام أثرا بعد عين رحمه الله . ولو هنا غلو واسراف فى القول (ز)

(٢) جركسى أيضا أثنى عليه السيوطى كل الثناء فى حسن المحاضرة لكنه كان سعيد الحظ فى عهد امارته بخلاف عهد سلطنته لاستفحال الفتن اذ ذاك . وهو الذى جدد جامع الحاكم (ز)

(٣) هو وآقوش الأفرم كانا ابنى خالة وكانا من الجراكسة كما فى تذكرة الصفدى راجع ترجمة آقوش من المنهل الصافى وهو الذى أنقذ طرابلس الشام من أيدى أهل الصليب أيام امرته حتى قال الشهاب محمود فيه :

خير فتح جرت به الاقلام　　ماغدا للحسام فيه انتقام

يريد حسام الدين لاجين ـ الى أن قال :

فى ليوث لها اذا زلت الأقـ　　دام فى حومة الوغى إقدام
من بنى يافث اذا علت الحر　　ب اصطلوها وان غلا الموت ساموا
يبذلون النفوس لا عن هوان　　بل كذا يبذل الكريم الكرام

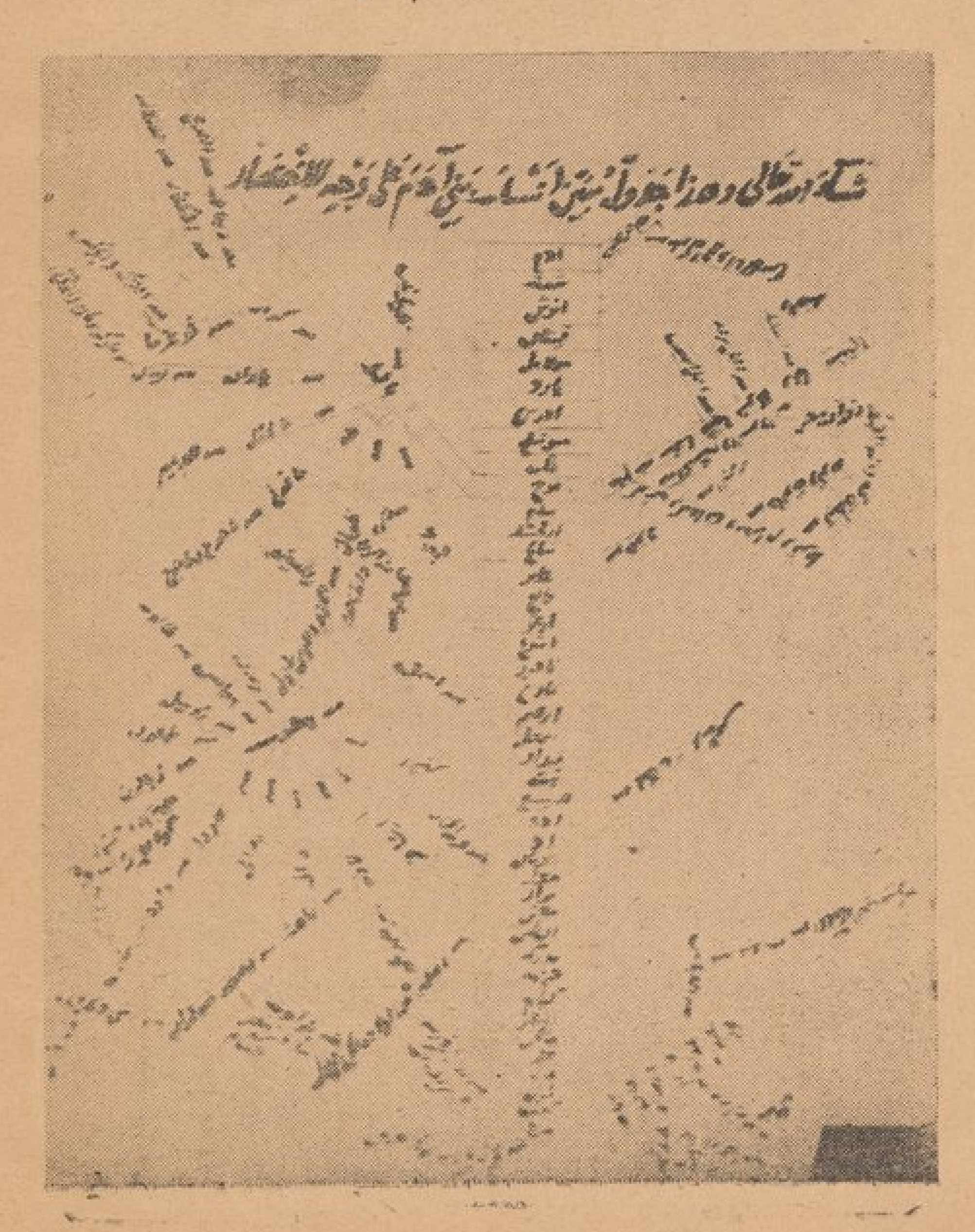
الى آخر تلك القصيدة العصماء المسجلة فى ذيل القطب اليونينى على مرآة الزمان ثم تولى الملك واستشهد وهو قائم يصلى رحمه الله وعده روميا خرافة ومن رجال الغرب من يحاول أن يجعل بعض عظماء الملوك من الدولتين البحرية والبرجية من الفرنجة عن محض هوى بدون أى دليل وقد رد عليهم الاستاذ الأثرى السيد حسن قاسم أحسن رد بمناسبة ترجمة الاستاذ أبى الحديد فى مجلة الثقافة بعض فقرات من بعض رحلات هؤلاء المليئة بالاساطير (ز)

السلطان الملك الظاهر برقوق . والخامس السلطان الملك المؤيد والسادس مولانا السلطان الملك الظاهر أبو الفتح ططر خلد الله ملكه .

واعلم أنه يطلق على جراكسة هذا الزمان أنهم من العرب لأن اختلاط أنسابهم مع أنساب العرب من مدة تزيد عن ثمان مائة سنة ، وأما من كانوا فيما قبل هذه المدة فانهم من الترك المحض بلا خلاف .

ولاشك أنه يطلق على مولانا السلطان الملك الظاهر خلد الله ملكه أنه من العرب بهذا الاعتبار فيكون استحقاقه لهذا المنصب الشريف من هذا الوجه أيضا على مانبينه ان شاء الله تعالى .

وهذا جدول يبين أنساب بنى آدم على وجه الاختصار :



الفصل الثانى

فى اسمه وما يدل عليه حروفه

اعلم أن اسم مولانا السلطان خلد الله ملكه ثلاثة أحرف ؛ وهى طاآن وراء مهملات وفيه لغتان أخريان إحداهما تتر بتائين موضع الطائين ، والاخرى تتار بزيادة ألف . فلنتكلم فى هذه الوجوه الثلاثة بما يقتضيه القواعد الحرفية وغيرها . أما الطاء والالف فهما من الحروف النارية ، وأما التاء فهو من الحروف الهوائية وأما الراء فهو من الحروف الترابية .

والسر فى ذلك أن الطاء والالف يدلان على أن كل من عاداه أو عصى عليه أو خرج من طاعته أو أضمر له سوءا أو نوى له مكراً وخديعة فان نارهما تحرقه لقوتهما مع سعد الملك حتى يتلاشى أمره ويتفرق شمله ولا يبقى له ولمن يلوذ به أثر ولا خبر كالنار الحسية إذا وقعت فى أرض تأكل مافيها كله

وأما التاء فانه يدل على أن من نصح له وأخلص فى طاعته ظاهرا وباطنا ينصب عليه نفحات نسيمه الوسيم وتربيه نسمات بره العظيم كالهواء الحسى فانه حياة كل ذى روح وبقاء كل حيوان .

وأما الراء فانه يدل على عمارته بلاد رعيته وعلى شمول عدله كالتراب الحسى فانه يخرج منه أرزاق جميع الحيوانات ويستتر به من كان من الاموات

وأما السر فى تكرر الحرفين فى اسمه فانه يدل على امتداد قوته فى سعده وعدم التخلل فى اثنائه من شىء منكد أو مغير وقد قلنا : إن الطاء حرف نارى وله قوة زائدة على بقية العناصر ولا سيما النار إذا تزايدت من جنسها وتكررت ازدادت قوة وزيادة سعادة صاحبه تقارن هذين الحرفين من غير تخلل حرف آخر بينهما ألا يرى أن الملك الناصر الكبير لما تكرر الحرف فى اسمه مع فاصل بين الحرفين حصل التغير لذلك . وكذلك الملك الظاهر برقوق .

فالشكر لله تعالى أن الحرف المكرر الذى فى اسم مولانا السلطان خلد الله

ملكه وقع فيه التقارن . ولحرف الراء أيضا أسرار عجيبة ، وقد قال علماء الحرف ان الراء للقوة المظهرة للحركة التى بها تمام الفعل وهو جوهر الزمان وعنه تم الفعل ، ودليل ذلك مانص الله تعالى فى قوله (الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت) والراء للتفصيل وبالحركة انفصل كل شيء ولولا هو لكانت الأشياء كلها شيئا واحدا ونقطة واحدة ، وبه فصلت الأشياء وظهرت أمثلة فى العالم وكانت مدة ذلك هى المدة التى خلق الله فيها وهى الستة الأيام التى ذكرها فى كتابه لذلك تكررت الراء فى ستة مواضع لتكون دليلا على تلك الايام الستة وهى مدة ظهور مافى اللوح من أمثله الخلق ، ولذلك كنى تبارك وتعالى عن الستة الأيام فى أوائل السور التى فيها الراء فقال فى سورة هود بعد آيات يسيرة (وهو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء) فلفظة هو كناية عن ذاته تعالى ، والعرش كناية عن اللام وهو اللوح ، والراء كناية عن الأيام لأن الراء التى فى يونس كناية عن اليوم الاول والتى فى هود كناية عن اليوم الثانى والراء الثالثة فى يوسف والرابعة فى الرعد والخامسة فى ابراهيم والسادسة فى الحجر ، فهذه ستة أحرف على ستة أيام فلذلك انقطعت الحركة والمدة فى هذا العالم على ستة أيام واليوم السابع يوم السكون والتمام . ولهذه العلة سبتت فيه اليهود ، وعمر الدنيا أيضاً سبعة أيام ، ثبت ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما .

وكذلك وقعت الطاء مكررة فى أوائل بعض السور وهى (طه) و (طسم تلك آيات الكتاب المبين) و (طس تلك ايات القرآن وكتاب مبين) و (طسم تلك آيات الكتاب المبين) وفيه أسرار عجيبة ليس هذا موضعها ، والطاء فى الحساب تسعة فى الصغير والكبير . والراء فى الصغير ثمانية وفى الكبير مائتان فالباقى بعد الاسقاط خمسة فاذا أضيف اليها ماتبقى من اسم أمه حواء يكون ثمانية ، فتكون نجمه ثامن البروج وهو العقرب ، وطالعه المريخ وهو برج ثابت ليلى مائى . وعلاماته تدل على أن له الوجه الثانى وهو للشمس تدل على ملك عظيم وجاه قوى مع ثبات وطول مدة .

وله من الحدود خمسة :

الاول بيت حياته يخاف عليه فى ثمان سنين فان جاوزها ففى ستة وعشرين فان جاوزها ففى مابعد التسعين.

الثانى بيت له يكون فى أول عمره قليل المال ثم ينقلب عليه الزمان إلى أن يصير له أموال يعجز عن ضبطها ، ويرزق ذلك من غير تعب ولا سعى ولاهو من قبل والديه .

الثالث بيت الاخوة والاصدقاء قليل الحظ منهم ويفارقهم ويفارق البيت الذى ولد فيه ويدفن أباه قبل أمه

والرابع بيت الاولاد والنساء يرى من الاولاد كل مايحب ، ولايموت حتى يرى ولد ولده ويتزوج كثيراً وربما يرث من بعضهم شيئاً كثيراً .

الخامس بيت أحواله فى ذاته يكون ديناً محترزاً عن الحرام ، يكون له يد من العلوم ومن الكتابة ويكون متواضعاً حليما شفوقا حلو الكلام حسن المنطق عالما بالالسن سريع الرضى سريع الغضب حسن الرجوع إذا هم فى شىء فعله وربما يعمل برأى نفسه . ومشاورته أهل العلم والمعرفة والتجربة خير له ويميل إلى بعض الطرب والشعر ومايشبه ذلك ومع هذا ميله إلى العلوم وإلى ما فيه رضى الله تعالى أكثر . ويكون مظفراً بأعاديه ولا يؤثر فيه السحر . وهو محسود فى ذاته ، وأكثر حساده من جنسه . وفى رأسه أوجبهته أثر جراحة ، وكذا فى فخذه أو ساقه . وعلى صدره خال فاذا أصابه غم أو هم فليضع يده عليه ويدعو ربه فان الله تعالى يفرج عنه . وأكثر أوجاعه من حقويه وانثييه ورأسه .

قال ارسطاليس يوافق هذا قرص البنفسج وجوارش القسط والاطرفيل وشراب العسل ، والحجامة خير له من الفصد . واذا أراد مباشرة النساء فليقلل الطعام والشراب البارد : ويوافقه من الاصباغ الكحلى ، ومن الفصوص الياقوت بألوانه ، ومن الدواب الاشهب والاشقر ، ومن النساء والأصحاب من كان نجمه العقرب والحوت والسرطان ، ويحذر ممن كان نجمه

الميزان والدلو والجوزاء .

ويوافقه من الشهور العربية شعبان ، ومن شهور الفرس أيار ومن شهور الروم تشرين الثانى ومن الأيام الثلاثاء يبارك الله له فيه كل مايريد ، وليحذر من يوم الأربعاء . فهذا الذى ذكرنا هو الاصل .

وأما عند بعض أهل الحساب فلا يحسب للملوك والسلاطين من الطوالع إلا برج الأسد وطالعه الشمس وهو برج عظيم وهو نجم داود عليه السلام ونجم على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو برج ثابت لاهبوط فيه ، برج ذكر نهارى شرقى وصاحبه فيه خير وسعة .

ومن نكات هذا الاسم أن حروفه من الحروف المنفتحة ، وبهذا السر صادف اسمه كنيته وهو أبو الفتح . ومنها أن الطاء موجود فى اسم من أسماء النبى صلى الله عليه وسلم وهو الاسم المذكور فى الانجيل وهو (خير طاء) وفى اسم لوط النبى عليه السلام . وفى اسم طالوت وهو نبى على رأى البعض ولاشك فى كونه ملكا عظيما بنص القرآن وتفسير (خير طا) بالعربية المختار وقيل السيد .

وأما الراء ففى اسم خضر عليه السلام ، فان قلت قد يوجد مثل ذلك فى سائر أسماء الناس فما فائدة هذا ؟ قلت : الكلام فى اسم صاحب منزلة كبيرة مثل خليفة أو سلطان أو ملك كبير فان اتفاق الحروف حينئذ له تأثير عظيم وليس ذلك فى أسماء آحاد الناس على ما تقرر فى موضعه .

ومن أسرار هذا الاسم أن صاحبه إذا أراد أن يدعو الله تعالى عند طلب حاجة من جلب منفعة أو دفع مضرة ينبغى أن يكثر فى دعائه يارحمن يارحيم يا رؤوف .

الفصل الثالث

فى كنيته وما تدل عليه ومن تكنى به من الملوك

اعلم أن كنية مولانا السلطان خلد الله ملكه أبو الفتح . وهى كل اسم يصدر بأب أو أم . ويستعملها العرب للتعظيم والتوقير ، وربما تصير كالعلم

بالغلبة ، والملوك يختارونها تفاؤلا بمعناها ولاشك أن وضع الكنى أيضا إلهام من الله تعالى كالأسماء الاعلام والالقاب يظهر سرها فى صاحبها ، وفيه بشارة لمولانا السلطان ثبت الله قواعد دولته أن الفتح والنصر لا يفارقانه فان شاء الله تعالى يفتح له البلاد التى ليست فى ملكه ويطيع له العباد الذين ليسوا تحت امره ولايزال سعيدا فى حركاته وسكناته ، منصورا فى جميع مايتفق له من أموره .

والفتح مقرون بالنصر قال الله تعالى (إذا جاء نصر الله والفتح) وقد وجدنا الملوك الذين تكنوا بأبى الفتح فتحت لهم فتوحات .

منهم الملك الظاهر بيبرس فان كنيته أبو الفتح ، حصلت فى أيامه الفتوحات الكثيرة ، منها قيسارية الشام وارسوف ويافا والثقيف وانطاكيه وبغراس وطبرية والقصير وحصن الاكراد وحصن عكار وحصن عكا وصفد وغير ذلك ، قال المؤرخون أول فتوحاته قيسارية الشام بالسواحل وآخر فتوحاته قيسارية الروم . وأما عدة فتوحاته فكانت تزيد على أربعين حصنا ومن جملة فتوحاته أنه استولى على ابلستين وقتل توقو وتداوله ، وفتح بلاد النوبة بكمالها ، وله فى الاسلام آثار عجيبة .

ومولانا السلطان خلد الله ملكه تلقب بلقبه وتكنى بكنيته ، فنرجو من الله عز وجل أن يفتح له مافتح له إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير .

وممن تكنى بهذه الكنية المؤيد نجم الدين أبو الفتح مسعود بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر والشام وبلاد الشرق والحجاز واليمن وكان ملكا مسعودا فى حركاته مثل اسمه .

وممن تكنى به السلطان برهان الدين القاضى صاحب سيواس وغيرها .

ومنهم أبو الفتح وقيل أبو الفتوح بلكين بن زيرى بن مناد صاحب افريقية من جهة المعز العبيدى .

ومنهم أبو الفتح غازى بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الملقب بالملك الظاهر صاحب حلب ، كان ملكا مهيبا حازما متيقظا ، كثير الاطلاع على أحوال رعيته وأخبار الملوك عالى الهمة حسن التدبير والسياسة باسط

العدل محباً للعلماء مجيزا للشعراء ، فنرجو من الله عز وجل أن يفوق مولانا السلطان خلد الله ملكه عليه .

ومنهم أبو الفتح ملكشاه بن ألب أرسلان محمد بن داود بن مكائيل بن سلجوق بن دقاق ، كان من أحسن الملوك سيرة حتى كان يلقب بالملك العادل وكان منصوراً فى الحروب .

ومنهم أبو الفتح موسى بن الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب الملقب بالملك الأشرف ، وكان سلطانا كريما حليما واسع الصدر كريم الأخلاق كثير العطاء ، لايوجد فى خزانته شىء من المال مع اتساع مملكته ولايزال عليه الديون للتجار .

وأما من العلماء وأعيان الناس فكثير فيهم ممن كانوا يكنون بأبى الفتح ومن أسرار هذه الكنية أن صاحبها إذا أراد أن يدعو فى طلب حاجته من جلب منفعة أودفع مضرة ينبغى له أن يكثر من قوله (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين)

الفصل الرابع

فى لقبه وما يدل عليه ومن تلقب به من الملوك

اعلم أن لقب مولانا السلطان خلد الله ملكه : الظاهر ، وهو من الألقاب الحسنة ، من الظهور وهو الغلبة ولاشك أن الله تعالى لما أظهره على الطائفة الفجرة الذين أرادوا أن يفرقوا جمع العساكر الاسلامية ويشتتوا شمل المسلمين ونصره عليهم وولاه على عباده ألهمهم أن يلقبوه بالظاهر ، والألقاب تنزل من السماء .

واللقب الحسن يشعر برفعة صاحبه كما تلقب أبو بكر رضى الله عنه بالصديق لتصديقه خبر الإسراء ، وقيل لتصديقه النبى ﷺ فى أول الامر وهو أول الناس إيمانا وأول من لقب فى الاسلام ، واسمه عبد الله بن أبى

قحافة عثمان . وتلقب عمر رضى الله عنه بالفاروق لفرقه بين الحق والباطل وهو أول من تسمى بأمير المؤمنين . وتلقب عثمان رضى الله عنه بذى النورين لمكانة ابنتى رسول الله ﷺ تحته ، وهما رقية وأم كلثوم رضى الله عنهما وتلقب على بن أبى طالب رضى الله عنه بالمرتضى ، وبأبى تراب . ولم يزل الخلفاء من بنى أمية يلقبونه بأمير المؤمنين ولايذكرون غير ذلك إلى أن انتهت الخلافة إلى بنى العباس رضى الله عنه .

وأولهم السفاح ابن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب . ثم المنصور ، والمهدى ، والهادى ، والرشيد ، والأمين ، والمأمون ، والمعتصم والواثق ، والمتوكل ، والمنتصر ، والمستعين بالله ، والمعتز ، والمهتدى ، والمعتمد ، والمعتضد ، والمستكفى ، والمقتدر ، والقاهر ، والراضى ، والمتقى والمستكفى ، والمطيع ، والطائع . والقادر . والقائم . والمقتدى . والمستظهر والمسترشد . والراشد . والمقتفى . والمستنجد . والمستضىء . والناصر . والظاهر . والمستنصر . والمستعصم . وهو آخر الخلفاء العباسيين بالعراق

وبدئت الخلافة العباسية بالعراق بعبد الله السفاح وختمت بها بعبد الله المستعصم الذى قتله التتار بأمر هلاكو فى سنة ست وخمسين وستماية . وعدتهم سبعة وثلاثون خليفة . فجملة أيامهم خمسمائة سنة وأربع وعشرون سنة

وقارن دولتهم دولة الفاطميين ببلاد مصر وبلاد الشام فى بعض الاحيان والحرمين فى بعض الزمان . واستمرت دولتهم قريبا من ثلثمائة سنة . وأولهم المهدى . وآخرهم العاضد . وكان مقامهم بمصر مائتى سنة وثمان سنين .

وهؤلاء أيضا تلقبوا بألقاب وهم المهدى . والقائم . والمنصور . والمعز . والعزيز . والحاكم . والظاهر . والمستنصر . والمستعلى . والآمر . والحافظ . والظافر ، والفائز . والعاضد .

وكذلك تلقب بنو بويه بألقاب مختلفة وهم معز الدولة : وعماد الدولة . وركن الدولة ؛ وكانوا أخوة واستولوا على البلاد وملكوا العراقين بعد أن كانوا فقراء لايملكون شيئا ثم من ملك من أولادهم

وحاشيتهم تلقب أيضاً نحو ذلك . نحو عضد الدولة ، وصمصام الدولة ، وجلال الدولة ، وسيف الدولة . وحسام الدولة . وغياث الدولة . ومؤيد الدولة وناصر الدولة . وعز الدولة . وشرف الدولة . وبهاء الدولة . وسلطان الدولة ومهذب الدولة . وأسد الدولة ، وشبل الدولة ، وقوام الدولة .

وكذلك تلقب بنو أيوب بألقاب مختلفة . وهم السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وأولاده الثلاثة الذين ملكوا بعده : وهم الملك الافضل . والملك العزيز والملك الظاهر ثم ملك بعدهم أخو صلاح الدين الملك العادل . ثم ابنه الملك العامل . ثم ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب وهو الذى جلب المماليك الترك إلى الديار المصرية .

وكذلك تلقب سلاطين الترك وأولادهم بألقاب مختلفة فأولهم الملك المعز أيبك التركمانى : تولى السلطنة يوم السبت آخر ربيع الاول من سنة ثمان وأربعين وستمائة ثم تولى ابنه نور الدين على وتلقب بالمنصور ثم خلع وتولى عوضه قطز وتلقب بالمظفر : ثم تولى بيبرس وتلقب بالظاهر ثم تولى ابنه بركة قان وتلقب بالملك السعيد ، ثم تولى أخوه سلامش وتلقب بالعادل ثم تولى قلاوون وتلقب بالمنصور ثم تولى ابنه خليل وتلقب بالاشرف . ثم تولى أخوه محمد وتلقب بالناصر . ثم خلع وتولى عوضه كتبغا وتلقب بالعادل ثم تولى لاجين وتلقب بالمنصور ثم أعيد الناصر محمد ثم خلع وتولى عوضه بيبرس الجاشنكير وتلقب بالمظفر . ثم خلع وأعيد الناصر محمد . ثم تولى ابنه أبو بكر وتلقب بالمنصور ثم تولى أخوه كجك وتلقب بالاشرف ثم تولى أخوه أحمد وتلقب بالناصر ثم تولى أخوه اسمعيل وتلقب بالصالح ثم تولى شعبان وتلقب بالكامل ثم تولى أخوه حاجى وتلقب بالمظفر . ثم تولى أخوه حسن وتلقب بالناصر ثم تولى أخوه صالح وتلقب بالصالح ثم أعيد الناصر حسن ، ثم تولى محمد بن المظفر حاجى وتلقب بالمنصور ثم تولى شعبان بن حسين بن الناصر محمد وتلقب بالاشرف ثم تولى ابنه على وتلقب بالمنصور . ثم تولى أخوه أمير حاج وتلقب بالصالح . ثم تولى برقوق وتلقب

بالظاهر ، ثم خلع وتولى حاجى بن شعبان وتلقب بالمنصور ، ثم أعيد الظاهر ثم تولى ابنه فرج وتلقب بالناصر ثم تولى أخوه عبد العزيز وتلقب بالمنصور ثم أعيد الناصر فرج ، ثم تولى الخليفة المستعين بالله ، ثم تولى شيخ وتلقب بالمؤيد ، ثم تولى ابنه أحمد وتلقب بالمظفر .

ثم تولى مولانا السلطان ططر وتلقب بالظاهر لأن الله تعالى أظهره على أعدائه ، وأصلح به أحوال المسلمين ، وهو لقب شريف حسن عزيز ، لم يلقب به من خلفاء بنى العباس إلا خليفة واحد ، وهو الظاهر بأمر الله أبو نصر محمد بن الناصر لدين الله . وكذلك لم يلقب به من الفاطميين إلا واحد ، وهو أبو هاشم على الملقب بالظاهر لاعزاز دين الله بن الحاكم وتلقب به من بنى أيوب واحد وهو الملك الظاهر غازى بن الملك الناصر صلاح الدين أيوب .

وأما من سلاطين الترك الذين ملكوا الديار المصرية فلقبت به ثلاثة : الاول السلطان الملك الظاهر بيبرس ، والثانى الملك الظاهر برقوق ، والثالث مولانا السلطان الظاهر ططر خلد الله ملكه .

وكذلك تلقب به واحد من بنى أرتق ملوك ماردين وما حواها ، وهو الملك الظاهر مجد الدين عيسى .

وهذا لقب عزيز شريف استنبطوه من قوله تعالى (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً) وقوله تعالى (فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين)

ولاشك أن الله تعالى أظهر مولانا السلطان على أعدائه من الذين أضمروا له المكر والسوء وأيده بنصره فأصبح ظاهراً عليهم مالكا لرقابهم ولأزمة أمور المسلمين ببركة سيد المرسلين محمد المبعوث رحمة للعالمين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما لفظة السلطان فانما ظهرت فى دولة بنى أيوب لان أول من ملك منهم هو السلطان صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن الامير نجم الدين أيوب

ولم يكن أحد قبله يخاطب بسلطان ، وإنما كان يخاطب بلقب خاص له أو بالامير ، وكان مثل أحمد بن طولون يلقب بالامير أحمد ، وذلك انما كان لقيام الخلافة ، فلما ضعفت الخلافة وتلاشى أمرها تلقب كل من ملك إقليما بالسلطان ومعنى السلطان الحجة يعنى هو حجة الله فى الارض قال تعالى : (سلطانا مبينا) أى حجة ظاهرة وقيل : لانه به يقام الحجج والحقوق وكل سلطان فى القرآن معنـاه الحجة النيرة وقد ذكره الله فى القرآن فى اثنين وثلاثين موضعاً

الفصل الخامس

فى كونه عاشر السلاطين الترك الافاقين

اعلم أن مولانا السلطان الملك الظاهر أيده الله بملائكته وقع فى السلطنة عاشر السلاطين الترك الذين جلبوا إلى الديار المصرية لان أولهم السلطان الملك المعز أيبك والثانى السلطان الملك المظفر قطز ، والثـالث السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقدارى والرابع السلطان الملك المنصور قلاوون الالفى والخامس السلطـان الملك العـادل كتبغا والسادس السلطان الملك المنصور لاجين ، والسابع السلطان الملك المظفر بيبرس الجاشنكير والثامن السلطان الملك الظاهر برقوق والتاسع السلطان الملك المؤيد شيخ والعاشر مولانا السلطان الملك الظاهر ططر خلد الله ملكه

وقد ذكر بعض أهل الحساب أن السلطنة بالديار المصرية تختم بالعاشر من الذين يملكون من الترك ، وتكون فى أيامه عدل ظاهر واقامة للشريعة وينقطع عسف الظلمة وسعى المفسدين ويستد باب الرشوة والبرطيل ويأمن الناس على أنفسهم وعلى أولادهم وعلى أموالهم ويرخص الاسعار وتظهر البركة فى الارزاق ويكثر الخير والبر ويتيسر تحصيل الدراهم والدنانير وتعتدل أحوال الطرقات ، فهذه بشارة عظيمة لمولانا السلطان حيث تظهر هذه الخيرات فى أيامه فان هذه الاشياء ماوقعت إلا فى أيام خليفة راشد أوسلطان عادل فمنة الله تعالى على عباده باقامة مولانا السلطان خلد الله ملكه

المحصل لهذه المصالح ، إذ بقدر النعمة تكون المنة ، قال الله تعالى (ولكن الله ذو فضل على العالمين) ذكروا معناه باقامة السلطان لأمن الناس به وتحصيل مصالحهم ففضله على الظالم كفه عن الظلم ، وعلى المظلوم نصره وأخذ حقه والمنع من أذاه فالسلطان أقدر الناس على كف الظالم ونصر المظلوم وروى (السلطان العادل ظل الله فى الأرض يأوى إليه كل مظلوم).

ثم اعلم أنهم تكلموا فى معنى قول من قال أن السلطنة تختم بالعاشر من الذين يملكون من الترك فقال بعضهم معناه على حقيقته : أن الذى يأتى بعد العاشر لا يكون من الترك واليه أشار محي الدين فى بعض مؤلفاته وقال آخرون معنى ذلك أن السلطنة التى حقها العدل والانصاف تختم بالعاشر ، يعنى يظهر بعده الظلم والشر ويقل الأمن والانصاف فيضعف أمر السلطنة فيكون كأنها قد ختمت وذهبت .

ثم اعلم أن فى وقوع مولانا السلطان خلدالله ملكه عاشراً رمزاً آخر خفيا لايدركه إلا أهل الذوق من أهل العلم . وهو أن ذلك يدل على قوته فى ذاته وقوته فى رعيته وذلك أن مراتب الأعداد أربعة . آحاد وعشرات ومئات وألوف فأعد لها مرتبة العشرات لأن ما بعدها مبنى عليها وغاية الآحاد عشرات وأقواها ما يصير تلك العقود وذلك هو العاشر فى رأس كل عقد لان ما تحت كل عاشر إلى ان ينتهى إلى الواحد الحقيقى ليس له ما للعاشر على مالايخفى فيكون القوة للعاشر والتأثير له لكونه غاية لعقده ونهاية له فمولانا السلطان ثبت الله قواعد دولته هو العاشر فالقوة له والتأثير له

وفيه نكتة أخرى وهى أنه فى ابتداء الاسم تاسع ثم ثامن . وفى ظهور مسماه عاشر ، فالعشرة تغلب التسعة والثمانية فهذا ملك يغلب من سبقه من هؤلاء بالسيرة الحسنة والعدل والانصاف والاحسان إلى الناس وكل من اتصف منهم بصفة حسنة فالموجود فى مولانا السلطان من ذلك الجنس أقوى منه وأحسن .

الفصل السادس

فى استحقاقه السلطنة وتعينه لها

اعلم أن منصب السلطنة منصب عظيم ؛ ومنزلة كبيرة لا يستحقها إلا من يوجد فيه شروطها ومولانا السلطان خلد الله ملكه قد احتوى على شروطها فلذلك اختاره الله وولاه على المسلمين .

الاول من الشروط أن يكون رجلا كاملا . الثانى أن يكون عاقلا ؛ الثالث أن يكون فارسا شجاعا ، الرابع أن يكون عارفا خبيراً باحوال الناس ؛ الخامس أن يكون عنده شيء من علوم الشريعة ليقدر به على فصل الخصومات . السادس أن يكون متصفا بالعدل . السابع أن يكون متفقدا أحوال رعيته فى كل وقت . الثامن أن يكون سخيا . التاسع أن يكون حريصا على إقامة الطاعات . العاشر أن يكون مجتنبا عن المعاصى وعن مايلوث الاعراض .

فهذه الشروط كلها موجودة فى مولانا السلطان لاينكر ولايخفى فلذلك استحق هذا المنصب الشريف بل وجب تعينه لذلك من الوجوه المذكورة ومن وجوه أخرى : الاول أنه استحق السلطنة من كونه رجلا كاملا لانه عدى الاربعين التى هى كال الرجولية ولهذا كان الوحى لاينزل على نبى من الانبياء عليهم السلام إلا بعد الاربعين . الثانى أنه استحق من كونه أعقل من بصدد هذا المنصب . الثالث استحق من كونه فارسا . فان فروسيته مشهورة وشجاعته معلومة لاينكرها منكر بل يشهد بذلك من لايريده والفضل ما شهدت به الاعداء . وقد تقدمت له أمور فى مواطن الحرب سيما لما كان مع الملك المؤيد رحمه الله حين يجرى عليه من الوقائع الشديدة ، وحين كان أيضا مع ولده فى بلاد الروم لاجل فتح قلاعها . الرابع استحق من كونه عارفا خبيراً بأحوال الناس فانه يعرف أهل الديار المصرية والشامية والحلبية من عربها وعجمها وتركها وتركمانها وأهل أريافها بل وله معرفة بغير هؤلاء

من أهل الشرق والغرب وأهل الروم لكثرة دوره فى البلاد ولكثرة اجتماعه بأهل البلاد من العلماء والفقراء والصلحاء والتجار وغيرهم ، فإن من كان يقدم إلى الديار المصرية فى أيام المؤيد من سائر الطوائف كان يجتمع به ويعرفه بحاله ، ويقوم هو بمصالحه بحسب ما يليق بحال كل أحد . الخامس استحق من كون معرفته بالعلوم الشرعية ، فانه من بين الترك منفرد بذلك لقدرته على استخراج المسائل الشرعية وغيرها من الكتب بمطالعته فى كتب الفقه والتفسير وغير ذلك ، وقدرته على البحث مع الفقهاء ، بل وكثير من الطلبة لا يقدرون على جواب اسئلته لتعمقه بذهنه الذكى فى معضلات الأشياء وهو عزيز بين طائفة جنسه ، ومثل هذا قليل الوجود

وكيف لا يستحق السلطنة وهى متعينة عليه ؟ أم كيف انحرف عن سلطنته من كان فى قلبه حسد عليه ؟ ولم يفعل ذلك إلا من هو قليل الدين بل عديمه . السادس من كونه متصفاً بالعدل ، وشاهد ذلك ما صدر منه فى أحكامه منذ مات الملك المؤيد ، فانه لم يصدر منه إلا كل حكم يضرب به المثل بين العباد فى البلاد ، وهو ظاهر لكل أحد لا يحتاج إلى بيان .

ويدل على ذلك ما صدر منه من أحكامه فى أيام إمرته فى نيابته عن السلطنة وفى أيام حكمه على المماليك وغيرهم فانه لم يشتهر عنه مد كف إلى أخذ شىء ولا ميل إلى ظلم ، وكان يحرر القضايا إذا وقعت عنده أحسن من كثير من القضاة ، ويفصلها على الوجه الشرعى من غير ميل إلى أحد فى ذلك وغير التفات إلى الدنيا ولو كانت شيئا كثيرا ولقد شاهدت ذلك مرارا عديدة ، فانه كان يهرب من باب الرشوة والبرطيل كما يهرب أحد من النار . السابع من كونه متفقداً أحوال الناس ، فانه كان يفعل ذلك فى إمرته ، وذا يدل على أنه يفعل اكثر من ذلك فى سلطنته لكثرة قوته على ذلك وبسطة يده بخلاف الإمرة . الثامن من كونه سخيا فإنه فى حال إمرته ما كان يبقى شيئا حتى كان لا يسلم من الدين ويزداد ذلك فى سلطنته لسعة يده وبسطة دنياه . التاسع من كونه حريصا على إقامة الطاعات وشاهد ذلك أن كل أحد يشهد بذلك

لكون أوقاته معمورة بتلاوة القرآن ومطالعة الكتب والمجالسة مع العلماء وأهل الخير . العاشر من كونه مجتنبا عن المعاصى التى تلوث الأعراض ، وشاهد ذلك أنا قد صحبناه من مدة مديدة ماشاهدنا منه شيئا يشينه فى دينه ولاسمعنا أحداً قال شيئا من ذلك .

وأما الوجوه الأخرى لاستحقاقه السلطنة . فالاول منها قربه من الناس وتواضعه واختلاطه بالعلماء والفقراء ، والثانى من حيث كونه صاحب ذوق فى الامور كلها . والثالث من حيث انفراده وتعينه لهذا المنصب لعدم من يدانيه أو يقاربه وقد علم أن الشخص إذا تعين لمنصب أو وظيفة دينية يفترض عليه الدخول فيه فان امتنع يأثم فانه إذا امتنع يدخل فيه من لا يصلح لذلك فيحصل منه فساد كبير للاسلام والمسلمين . والخامس من حيث كماله فى ذاته واقبال الناس إليه عند مواجهته ، فهذه خمسة عشر وجها استحق بها مولانا السلطان السلطنة وتعين لها

الفصل السابع

فى أوصافه الجميلة وأخلاقه الحميدة

اعلم ان مولانا السلطان خلد الله ملكه موصوف بالأوصاف الجميلة التى ذكرناها فى الفصل السابق ، وبهذا رفع الله قدره . ومن جملة أوصافه الجميلة : أن أى عالم أو فقير صالح يرد الى الديار المصرية يحسن إليه من قبل الناس كلهم من إنعام عليه واحسان إليه من ذهب وفضة وقماش ودابة مثمنة ومنها أنه لم يزل كان يتعصب لأهل الخير والاستحقاق عند الملك المؤيد وغيره من أرباب الحكم والدنيا ، وكان سعيه فى ذلك لله تعالى من غير التفات الى الدنيا ، فإذا كان هذا شأنه قبل السلطنة مع قصور الباع ، فماظنك به وهو سلطان الاسلام والمسلمين مع طول الباع وسعة القدرة ؟ ومنها أنه لم يزل كان يسعى فى الخير عند المؤيد وغيره ، ولم يسع يوما من الدهر بشر فى حق أحد ، ولا فى حق من كان يعاديه ، ولا سعى بقطع رزق أحد ، ولا

بإعدامه، فلا جرم أن الله رفع قدره ، وأجل شأنه من بين طوائف جنسه .
ومنها أنه لم يزل كان مستشار الملك المؤيد لكون آرائه حسنة عالية ، حتى سمعت المؤيد رحمه الله مراراً عديدة كان يقول ما عندى من يصلح للخطاب ورد الجواب إلا فلان ، وكان يعنى به مولانا السلطان خلد الله ملكه ، وشاهد ذلك أن كل حركة تحرك بها بعده كانت سعيدة زاد الله سعده فى الدارين .

ومن أخلاقه الحميدة حلمه الواسع ، وهو مشهور به والله تعالى زينه به لإرادته له خيراً . ويروى أن الله تعالى يحب الحليم الحيي ، ويبغض الفاحش البذى . وقال على كرم الله وجهه : من حلم ساد ، ومن غرس شجرة الحلم اجتنى ثمرة السلم . فلأجل ذلك جعله الله سيداً على قومه . ومنها خلقه الحسن فلذلك أحبه من رآه أو جالسه أو سمع به ، وقال صلى الله عليه وسلم (ان أفضل ما يوضع فى الميزان الخلق الحسن) وقال على كرم الله وجهه : حسن الخلق وحسن الجوار يعمران الدنيا ويزيدان فى الأعمار . ومنها نظافة لسانه عن الكلام الفاحش حتى عند احتداده ولقد صحبته سنين عديدة ، وجالسته فى مجالس كثيرة ، ولم أسمعه يوماً من الدهر صدر منه كلمة فاحشة ، وهذا أيضا فضل من الله تعالى يختص به من يشاء من عباده والله ذو الفضل العظيم .

الفصل الثامن

فيما ينبغى له أن يفعل وما لا ينبغى

اعلم أن السلطان ينبغى أن يكون حليما قال الله تعالى (فاصفح الصفح الجميل) وترك الحلم من شدة الغضب ، ومن أطال الغضب حرم السلامة قاله الحكيم .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : الحليم محبب الى الناس مسوّد فى الدنيا مرضى العقل عند الله تعالى فى الآخرة . وقال لقمان عليه السلام لابنه : يابنى ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة : لا يعرف الحليم إلا عند الغضب ،

ولا الشجاع إلا عند الحرب ، ولا أخوك إلا عند الحاجة إليه . وقال الأصمعي دفع أردشير إلى رجل كان يقوم على رأسه كتاباً وقال إذا رأيتني قد اشتد غضبي فادفعه الى ، وكان فيه : اسكن فلست بإله ؛ إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضاً ، وتصير عن قريب للدود والتراب .

وسئل بعض الفلاسفة : ما الحلم ؟ فقال قد قيل فيه حدود ، قيل تجرع الغيظ ؛ وقيل : تؤدة النفس ، وقيل : ايتاء العفو ، وقيل : كظم الغيظ ، وقيل : قهر الغضب ، وقيل : سقوط قوة الغضب ، وقيل إذلال الطبيعة . وقال الحكيم : الصبر على جزع الحلم أعذب من جنى ثمر الندم .

وينبغي أن يكون سخيا لأن أجلى قواعد المملكة السخاء ، وهو أساسها وتاجها ، وبه يتم جمالها ، لأن بالسخاء تذل له الرقاب ، وتخضع له الجبابرة ، وتميل إليه الأعداء وتكثر لديه الأولياء . وأحوج الخلق الى استعطاف القلوب من الخاصة والعامة الملوك . وقال بعض الحكماء : أصل المحاسن كلها الكرم وأصل الكرم نزاهة النفس عن الحرام ، وسخاؤها بما ملكت على الخاص والعام وجميع خصال الخير من فروعه .

وروى أن أعرابياً قدم على علي بن أبي طالب رضى الله عنه فقال يا أمير المؤمنين ان لى إليك حاجة الحياء يمنعنى أن أذكرها لك ، قال فخطها على الأرض فخط فيها ، إنى فقير فقال لغلامه يا قنبر اكسه حلتى فكساه الحلة فقال الاعرابي :

كسوتنى حلة تبلى محاسنها	فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا
ان نلت حسن ثنائى نلت مكرمة	ولست تبغى بما قد نلته بدلا
ان الثناء ليحيي ذكر صاحبه	كالغيث يحيي نداه السهل والجبلا
لا تزهد الدهر فى عرف بدأت به	كل امرىء سوف يجزى بالذى فعلا

فقال على رضى الله عنه : زده ماية دينار فأعطاه إياها فلما ولى الاعرابى قال قنبر يا أمير المؤمنين لو فرقتها على المسلمين لأصلحت بها من شأنهم ؟

فقال مه يا قنبر لا تفعل فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: اشكروا لمن أثنى عليكم فإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه.

وينبغى أن يكون أيضا صبوراً على المكاره فبالصبر ينال أعلى المراتب وأسنى المناصب. وقال على رضى الله عنه الصبر مطية لا تكبو.

وقال بعض الحكماء من صبر نال المنى ومن شكر حصن النعما.

واعلم أن النصر مع الصبر والفرج مع الكرب واليسر مع العسر.

ويروى أن الصبر نصف الإيمان. أوحى الله إلى داود عليه السلام فقال تخلق بأخلاقى ومن أخلاقى انى أنا الصبور. ويروى الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر.

وينبغى أن يأخذ بالعفو قال الله تعالى (خذ العفو وأمر بالعرف) وقال صلى الله عليه وسلم «ارحم ترحم» ورفع إلى أنو شروان أن العامة تؤنب الملك فى معاودة الصفح عن المذنبين مع تتابعهم فى الذنوب فوقع: المذنبون مرضى ونحن أطباء وليست معاودة الداء إياهم بمانعنا من معاودة العلاج لهم. وقال المأمون إنى لأجد لعفوى لذة أعظم من لذة الانتقام. وقيل لافلاطون أى شىء من أفعال الناس يشبه أفعال الله؟ قال الاحسان إلى الناس وفى الانجيل: أفلح أهل الرحمة لانهم يسترحمون.

واعلم أن العفو المحمود انما هو عن أفعال لا حدّ لله تعالى فيها، فأما حدود الله تعالى المشروعة فلا سبيل لأحد إلى العفو عنها، فان الملك إذا وثقت منه رعيته بحسن العفو لم يوحشها الذنب وان عظم وان خشيت منه العقوبة أوحشها الذنب وان صغر حتى يضطرها ذلك إلى المعصية.

ومن الواجب على الملك تسهيل حجابه والدخول عليه ليصل المظلوم إلى شكاية حاله، وذلك بأن يكون الحجاب من أهل الدين الورعين دون الفسقة الطمعين لان أحفظ شىء للمملكة وأعونه على العدل تسهيل الاذن للرعية فى رفع مظالمهم: بعث معاوية رضى الله عنه بعثاً فخرجوا فرجع رجل فقال له معاية: ألم تكن خرجت مع الناس؟ قال بلى ولكن سمعت من رسول

الله صلى الله عليه وسلم حديثا فأحببت أن أضعه عندك مخافة أن لا تلقانى . سمعته يقول (أيها الناس من ولى منكم عملا فحجب بابه عن ذوى حاجة من المسلمين حجبه الله أن يلج باب الجنة) . ويروى : (مامن إمام أو وال يغلق بابه دون ذوى الحاجة إلا أغلق الله عز وجل أبواب السماء دون حاجته) فجعل معاوية رضى الله عنه رجلا على حوائج الناس . وكذلك كان الخلفاء يحطون رجلا من أهل الدين والصلاح يرفع اليهم مظالم الرعايا .

ومن الواجب عليه إقامة الحدود على القوى والضعيف على قانون الشرع من غير زيادة ولا نقصان .

ومن الواجب عليه نصح رعيته ، وعن النبي ﷺ (مامن عبد استرعاه الله رعيته ثم يموت يوم يموت وهو لها غاش إلا حرم الله عليه الجنة) وعن سمرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (من استرعى رعية ولم يحطها بالأمانة والنصيحة ضاقت عليه رحمة الله تعالى التى وسعت كل شيء)

ومن الواجب عليه الاحسان إلى رعيته والشفقة عليهم ، كتب ارسطوطاليس إلى الأسكندر : انك انما تملك الأجسام لا القلوب ، فاحرص على اجتذاب قلوب رعيتك بالاحسان اليها ، واعلم أن نصح السلطان لرعيته وعدله فيهم يؤثر فى الأرض خصبا ، وغشه وجوره يؤثر جدبا . وروى هشام بن محمد بن السائب الكلبى عن أبيه : أن كسرى خرج يوما يتصيد ومعه أصحابه فرأى صيدا فتبعه حتى انقطع عن أصحابه وأظلته سحابة فأمطرت مطرا حال بينه وبين أصحابه . فمضى لايدرى أين يقصد !؟ فرفع له كوخ فقصده ، وإذا عجوز بباب الكوخ ، فقال لها أنزل ؟ قالت : انزل ، فنزل ودخل الكوخ وأدخل فرسه . وأقبل الليل فاذا ابنة العجوز قد جاءت ومعها بقرة قد رعتها بالنهار ، فأدخلتها الكوخ وكسرى ينظر اليها ، فقامت العجوز إلى البقرة فاحتلبت لبناً صالحا وكسرى ينظر إليه ، فقال فى نفسه ينبغى أن نجعل على كل بقرة خراجاً ، فهذا حلاب كثير ، وأقام بمكانه حتى مضى أكثر الليل ، فقالت العجوز . يافلانة قومى إلى البقرة فاحتلبيها ، فقامت

إلى البقرة فوجدتها حائلا لا لبن فيها ! فقالت : يا أماه قد والله أضمر الملك لنا سوءا فقالت : وماذاك ؟ قالت ان البقرة حائل ! فقالت لها : امكثى فان عليك ليلا ، فقال كسرى فى نفسه من أين علمت ما أضمرت فى نفسى ؟ أما إنى لا أفعل ذلك ، قال فمكثت ثم نادتها يابنية قومى إلى البقرة ، فقامت اليها فوجدتها حافلا ، فنادت أمها : يا أماه قد والله ذهب مافى نفس الملك من الشر ، هذه البقرة حافل قالت فاحتلبيها ، فأقبل الصبح وتتبع الرجال كسرى حتى أتوه ، فركب وأمر بحمل العجوز وابنتها اليه ، فأحسن اليهما وقال كيف علمت أن الملك قد أضمر شراً وأن الشر الذى أضمره قد عدل عنه ؟ قالت العجوز لنا بهذا المكان منذ كذا وكذا ما عمل فينا بعدل إلا أخصب ، وما عمل فينا بجور إلا ضاق علينا وانقطعت مواد النفع عنا .

ومن أعظم الواجبات عليه الاحتراز عن الظلم وسوء عاقبته ، وقال ﷺ اتقوا دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب . وقال عليه السلام : الظلم ظلمات يوم القيامة . وفى حديث جابر عن بعض أصحاب النبى ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول . ان الله يبعثكم يوم القيامة حفاة عراة غرلا ، ويقول . أنا الديان لاظلم عندى ، وعزتى لايجاورنى اليوم ظلم ظالم ولو لطمة بكف ولو ضربة يد على يد ، ولأقتصن للجماء من القرناء ، ولأسألن الحجر لم نكت الحجر ؟ ولأسألن العود لم خدش صاحبه ؟

وعن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : لا ينال شفاعتى ذو سلطان جائر عسوف غشوم . وعن شريح قال . سيعلم الظالمون حظ من نقصوا ؟ ان الظالم ينتظر العقاب والمظلوم ينتظر النصر . ووقع المأمون فى قصة متظلم على عمرو بن مسعدة يا عمرو ، عمر نعمتك بالعدل ، فان الجور يهدمها .

والسلطان أقدر الناس على كف الظالم ونصر المظلوم ، وقد روى : السلطان والإسلام اخوان لا يصلح واحد منهما إلا بصاحبه ، فالاسلام أس ، والسلطان حارس ، وما لا أس له متهدم ، وما لا حارس له ضائع . وروى الترمذى

باسناده عن النبي ﷺ . أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلساً إمام عادل ، وأبغض الناس إلى الله وأبعدهم منه مجلساً إمام جائر . وروى أبو نعيم باسناده عن النبي ﷺ يوضع المقسطين يوم القيامة منابر من لؤلؤ بين يدى الرحمن بما أقسطوا فى الدنيا . وروى أيضا أن النبي ﷺ قال . عدل ساعة خير من عبادة ستين سنة قيام ليلها وصيام نهارها ، وجور ساعة فى حكم أشد وأعظم من معصية ستين سنة وقد قيل : العدل أقوى جيش والامن أهنى عيش ، العدل ميزان الله فى الارض ، من عدل فى حكمه ؛ وكف عن ظلمه ، نصره الحق ، وأطاعه الخلق ، وصفت له النعما ، وأقبلت عليه الدنيا ، فتهنى بالعيش ، واستغنى عن الجيش ، وملك القلوب ، وأمن الحروب ، وصارت طاعته فرضاً ، ورعيته جندا من دان تحصن ، ومن عدل تمكن .

أيها الملك اجعل الدين كهفك ، والعدل سيفك ، تنج من كل سوء ، وتظفر بكل مرجو قال الناصح :

إذا سست قوما فاجعل العدل بينهم وبينك تأمن كل ما تتخوف
وان خفت من أهواء قوم تشتتاً فبالجـــود فاجمع بينهم يتألفوا

الفصل التاسع

فيمن يوليه على خواص نفسه وعلى الرعية

اعلم ان أعظم الامور التى يحتاج اليه السلطان أن يتفقد حال نوابه قبل أن يوليهم الاعمال وبعدها فمتى رأى أنهم يقبلون الهدايا على محاباة الرعايا فى ترك الواجب عليهم فيعلم أنهم قد خانوه . وفى الأمثال الهدية تعمى وتصم . ولايولى أعماله إلا من علم دينه وأمانته ، فان ولاية الخائن والطمع والفاسق يهدم أساس الملك بأدعية المظلومين . وقال المأمون . ما فتق علىّ فتق فى مملكتى إلا وجدت سببه جور العمال .

ويجب عليه أن لا يمكن نوابه من تعذيب الرعية وظلمهم ومضرتهم بغير حق ، وأن لايسامحهم بظلم الرعية بل يقابلهم عليه ، ومثل السلطان إذا ولى العمال الظالمين مثل من يسترعى غنمه الذئاب . كانت العامة تشتم الحجاج ابن يوسف والخاصة تلوم عبد الملك بن مروان ، وفيه قيل :

ومن يربط الكلب العقور ببابه فعقر جميع الناس من رابط الكلب

ولابد للملك من وزير صالح ، ولو كان السلطان يستغنى عن الوزير لكان أحق الناس بالاستغناء عنه كليمه موسى عليه السلام ، ولكنه قال : (واجعل لى وزيراً من أهلى) ثم ذكر حكمته فقال (اشدد به أزرى وأشركه فى أمرى) أسعد الملوك ملك له وزير صدق ، إن نسى ذكره ، وان ذكر اعانه . والوزير مع الملك بمنزلة سمعه وبصره ولسانه وقلبه . ويقال حلية الملوك وزينتهم وزراؤهم وأعظم الاشياء ضرراً على الملوك خاصة ، وعلى الناس عامة فقد الوزراء والاعوان .

وليحذر السلطان أن يولى الوزارة غير أولى الصلاح الورعين ، فبالطمع تنهد قواعد المملكة السلطان طبيب والرعية مرضى ، والوزير سفير بين الطبيب والمريض ، فاذا كذب السفير بطل التدبير . أربعة ينبغى أن تكون من أوثق ثقات الملك وأنصح نصحائه . الوزير . والطبيب . والطباخ . والساقى

وقال بزر جمهر لأنوشروان ينبغى للملك أن يستظهر بعشرة رجال من رعيته ليتم ملكه : الأول مشير ذو جاه وحرمة يقدر أن يقول للملك أخطأت أو أصبت . والثانى وزير متصرف شهم . الثالث مستوف ضابط لجميع المعاملات الرابع مؤتمن يحفظ قلاعه وثغور ملكه . الخامس حاجب نصيح متدين . السادس كاتب حاذق أمين بليغ . السابع رسول متفرس حاضر الجواب . الثامن جليس متأدب فكه . التاسع منجم بارز فى أحكام النجوم وسير الكواكب . العاشر طبيب خبير بعلم الطب متجرب معالج .

وقال بعض الحكماء . لاينبغى للملك أن يثق بعشرة أصناف من الناس من عاقبه فى غير جرم . ومن ناله ضرر من الملك . ومن عزله عن ولاية موروثة . ومن كان ثقة فاتهمه . ومن رفضه من غير سبب . ومن كان ذا مروءة أنزله فى غير منزلته . ومن قدم عليه نظراءه . ومن ظلمه فى غير موضعه ومن التجأ اليه من أعدائه . ومن قتل أباه أو ابنه .

ويقال شيئان يفسدان أمر الملك : استخبار من لايصدق إذا أخبر ، واستكفاء بعض لاينصح إذا أدبر . ومن الامور التى ينبغى للملك بل تجب عليه : أن لايولى الوظائف غير أهلها ، فان فيه فسادا ، وهو من أشراط الساعة ، وقال ﷺ : اذا أسند الامر الى غير أهله فانتظر الساعة . وقال الحسن بن على المروروذى : أعوذ بالله من امارة الصبيان ، ورئاسة النسوان ثم أنشأ يقول :

ثنتان يعجز ذو الرياضة عنهما رأى النساء وإمرة الصبيان
أما النساء فميلهن الى الهوى وأخو الصبا يجرى بكل عنان

وكذلك لايولى أحداً من الجهلة فى الوظائف الدينية ، ولافاسقا فى أى وظيفة كانت ، ولا يستعمل أحدا من اليهود والنصارى ومن فى معناهم عملا من الاعمال وان قل حتى ساسة الدواب ، كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : لاتستعملوا اليهود والنصارى ، فانهم أهل رشى فى دينهم ، ولا تحل الرشى .

وكذلك لايولى الملك أحداً بالرشى ، وقد قال ﷺ لعن الله الراشى والمرتشى والرايش ، وهو الذى يمشى بينهما ويصلح وقد قالت العلماء رضى الله عنهم :كل قاض يتولى بالرشى لاتصح توليته ، ولاتنفذ عقوده ولافسوخه

وكذلك لايولى أحداً وظيفة وفى مملكته من هو أفضل منه ، فانه ورد فى الحديث : من فعل هذا فقد خان الله ورسوله . ومن الخصال الموجبة لزوال الملك استعمال الاراذل على الاعمال الجليلة ، ومنعها الافاضل . وقيل لبعض بنى أمية ماكان سبب زوال ملككم ؟ فقال وليناصغار العمال كبار الاعمال ، فآل أمرنا إلى ما آل ! وسئل بزرجمهر ماسبب زوال ملك بنى ساسان ، بعد ما كان فيه من القوة والسلطان ، وشدة الاركان ؟ قال : لانهم قلدوا صغار الرجال كبار الاعمال . وفى الامثلة زوال الدول باصطناع السفل . وقيل لبعض بنى أمية : ما الذى أذهب ملككم فقال تحاسد الاكفاء ، وانقطاع الاخيار . وقيل لآخر ذلك فقال نوم الغدوات وشرب العشيات .

وقال المنصور . أربعة لايستقيم أمرى إلا بها كما لايستقيم السرير الا بقوائمه الاربع . صاحب شرطة لايفرق بين الشريف والوضيع فى اقامة الحدود ، وقاض لا تأخذه فى الله لومة لائم ، وصاحب خراج ينصف وينتصف ، وصاحب بريد ينهى الاخبار على وجوهها من غير زيادة ولا نقصان .

قال أنو شروان ثمانية أشياء أساس الملك يؤتى بأربعة ويحذر عن أربعة والذى يؤتى به . الدين ، واكتفاء الامين ، وتقديم الجزم ، وامضاء العزم . والذى يحذر عنه . غش الوزير ، وسوء التدبير ، وخبث النية . وظلم الرعية

وقد قالوا إذا عاشر الملك أهل العقل والادب ، وذوى الرأى والحسب ، يزداد عقلا وبهاءاً وجمالا ، ويكون تصرفه فى مملكته برأيهم ، فيكون ذلك سببا لثبات ملكه ، ودوام مملكته ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : مجالسة العقلاء تزيد فى الشرف . وأولى ما يجالس الملك العلماء فانهم هم العقلاء ،

وهم الذين يدلون الناس إلى الصراط المستقيم .

وقال أهل الفضل ينبغى للسلطان أن لايخلى مجلسه من كبار العلماء ، كان سليمان بن عبد الملك وهو خليفة يأتى عطاء بن أبى رباح ، وكان الرشيد يأتى مالك بن أنس رضى الله عنه ، وكان الأمين والمأمون يمشيان إلى العلماء

وينبغى للسلطان أن يجعل للعلماء منه مجلساً خاصا ، يذاكرونه فيه بالعلم ويذكرونه آلاء الله عليه ، وإحسانه اليه . والمراد من العلماء : الفقهاء الذين فقهوا عن الله أمره ونهيه ، وهم أهل الفقه والحديث وما يتعلق بهما من العلوم الشرعية . ومما يعين السلطان على طلب العلماء ومجالستهم : اقتناؤه الكتب الشرعية كالفقه وتفسير القرآن والحديث وما يتعلق بها من النحو واللغة والتصريف وشرح غريب اللغة ، هذه الكتب هى النافعة ، وإذا نظر فى شىء من ذلك وأشكل عليه شىء احتاج إلى سؤال العلماء عن ذلك فيجالسهم بسببه وليحذر السلطان من النظر فى كتب الفلسفة والنجوم ، فان مصنفى هذه الكتب زنادقة ، هم أعداء الرسل ، لأن علومهم منافية لعلوم المرسلين . وقال بعض الحكماء إذا كان الملك عالما ، وكان الحاكم عفيفاً ، وصاحب الشرطة عادلا ، دام الملك ، وإلا فسد ودثر .

وقد قيل الإسلام فسطاط ، والامام عمود ، والعلماء أوتاده ، فاذا مالت الأوتاد لم يثبت عمود ولا فسطاط ! ويجب عليه قبول النصح من العلماء والعمل بمقتضاه ، لما فى مخالفة العلماء الناصحين من الخطر وينبغى أن لايجالس أهل الفسق وأهل الاستهزاء بالناس ، لأن جليس السوء يذهب بهاءه ويستخف بحرمته ، ويوقعه فى المهالك ، ولذلك قيل صحبة الأخيار تورث الخير وصحبة الأشرار تورث الشر ، كالريح إذا مرت على النتن حملت نتناً ، وإذا مرت على الطيب حملت طيبا . ويروى : مثل الجليس الصالح مثل الدارى ان لم يجدك من عطره ، عبق بك من ريحه ، ومثل الجليس السوء مثل صاحب الكير ، ان لم يحرقك بناره علق بك من دخانه .

وفى كتاب كليلة : اجتنب عشرة من الاصحاب : الكفور للنعمة ، والغادر

بالعهد، والذى لايؤمن بالثواب والعقاب فى الآخرة . والمفرط فى الحرص والتهمة والغضب ، ومن يسخطه اليسير لغير علة ، ومن لايرضيه شىء وان كان كثيرا ، وذو المكر الداهى الغامض مكره ، واللهج بالزنا والخمر والميسر والسىء الظن المتلون والقليل الحياء .

ومن الواجبات عليه أن لايسمع كلام أحد فى غيره . قال الله تعالى : (ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم) وروى مسلم لايدخل الجنة قتات أى نمام . والسعاية فى الناس إلى السلطان مهلكة ، فكم من دم أراقه سعى ساع ! وكم من مال وحريم استبيح بنميمة باغ إياك والسعاة فانهم أعداء عقلك ، ولصوص عدلك ، ويفرقون بين قولك وفعلك . وفى المثل السائر : من أطاع الواشى ضيع الصديق .

ومن الواجبات عليه أن يعلم أن دوام نعمته موقوف على الشكر ، وأصل الشكر تقوى الله تعالى ، فمن أراد دوام العافية والسلامة فليتق الله فان المعاصى تزيل النعم . روى عن وهب رضى الله عنه أن ملكا شابا قال إنى لا أجد للملك لذة ، فلا أدرى أيجد الناس الملك كذلك أم أنا وجدته من بينهم ؟ فقيل : بل الملك كذلك فقال : ما الذى يقيمه ؟ فقيل له : يقيمه أن تطيع الله فلا تعصيه ، فدعا ناساً من خيار من فى مملكته فقال لهم كونوا بحضرتى وفى مجلسى ، فما رأيتم أنه طاعة الله فمرونى أعمل به ، وما رأيتم أنه معصية فازجرونى عنه أزدجر ، ففعل ذلك هو وهم فدام ملكه أربع مائة سنة مطيعا

ومن الواجبات على الملك أن يسلك سبيل الخلفاء الراشدين فى تفريق الاموال ، لاسبيل المتقدمين من الملوك الذين كانوا يجمعون المال من الحلال والحرام ، ويكتنزونها ولا يصرفونها فى مصارفها ، فبذلك استحقوا فى الدنيا اسم الظلم ، وفى الآخرة العذاب . وسيرة نبينا ﷺ والخلفاء الراشدين بعده صرفها فى وجوهها ولا يدخرونها ، مات رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة فى صاع من شعير . ولم يكن للنبى ﷺ بيت مال ولا للخلفاء الراشدين بعده ، وإنما كانت الأموال التى جبيت من حلها فى زمن

أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وعمر بن عبد العزيز رضى الله عنهم تقسم بين المسلمين ، وربما كان يفضل منها شىء فيجعل فى بيت ، فمن حضر واحتاج أعطى منه حتى لا يبقى منه درهم . وروى أن على بن أبى طالب رضى الله عنه أشرف على بيت المال فرآه ملآن ، فقال يا بيضاء ياحمراء غرى غيرى ثم نادى فى الناس وفرق جميع مافيه وأمر بكنسه ورشه ، ثم دخل فصلى فيه ركعتين . وكثير من ملوك الإسلام ساروا فى الأموال نحو هذه السيرة

وقال بعض الملوك لابنه : يابنى لاتجمع الأموال لتقوى بها على الاعداء فان جمعها تقوية لهم ، لانه إذا جمع المال أضعف الرجال ، فيطمع فيه الصديق ويثب عليه العدو . ولما تمكن يوسف الصديق عليه السلام من ملك مصر كان يجوع ويأكل خبز الشعير ، فقيل له . تجوع وبيدك خزائن الارض؟ قال أخاف أن أشبع فأنسى الجائعين . ويحكى أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه دخل على امرأته فقال يافاطمة عندك درهم أشترى به عنباً ؟ قالت لا قال فعندك ثمنه يعنى الفلوس ، قالت لا . فقالت . أنت أمير المؤمنين لاتقدر على درهم ولاعلى ثمنه تشترى به عنباً ! قال هذا أهون علينا من معالجة الاغلال فى نار جهنم .

والواجب على الملك أن يقتدى بسيرة هؤلاء حتى يشكر فى الدنيا ويرحم فى الآخرة . وكان الرشيد فى خلافته يحج سنة ويغزو سنة . وحكى عنه أنه كان يصلى كل يوم مائة ركعة الا أن يعرض له مرض ، وكان يتصدق من صلب ماله بألف درهم وكان إذا حج أحج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم وإذا لم يحج أحج فى كل سنة ثلثمائة بالنفقة السابغة والكسوة الظاهرة .

ومن الواجبات على الملك أن يجتهد فى حكمه ، ويتأنى ولايستعجل فى فصل الامر ، فان أدى اجتهاده إلى الحق حكم به ، وإن أشكل عليه رفع أمره إلى عالم لينظر فيه . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ . إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران . وان اجتهد فاخطأ فله أجر . ولا ينبغي للسلطان أن يترفع عن طلب العلم فليس أحد أرفع من

النبي ﷺ وقد قال . رب زدنى علما وأولى الناس بطلب العلم الملوك والشيوخ لان الخطأ منهم أقبح . ولبس أحوج إلى مجالسة العلماء ومطالعة كتب الفقهاء وسيرة الحكماء من السلطان لانه قد نصب نفسه لممارسة أخلاق الناس وفصل الخصومات بينهم . وكل ذلك يحتاج إلى علم بارع وبصر ثاقب ، والخلق كلهم مستمدون من السلطان الاخلاق السنية والطرائق العلية مفتقرون اليه فى الاحكام ، وقطع التشاجر وفصل الخصام ، فاذا كان كذلك فهو أحوج إلى العلوم من غيره .

وينبغى له أن يجالس الصالحين فانه اذا جالسهم يرق قلبه ، ويجتهد فى أمور الآخرة ، ويحصل له الاعتبار كما روى ان الإسكندر مر بمدينة قد ملكها ملوك سبعة وبادوا فقال هل بقى من نسل الملوك الذين ملكوا هذه المدينة أحد ؟ فقالوا رجل يكون فى المقابر فدعاه فقال ما دعاك إلى لزوم المقابر ؟ قال ان أعزل عظام الملوك من عظام عبيدهم فوجدت ذلك سواء . قال فهل لك أن تتبعنى فأحيي بك شرف آبائك ان كانت لك همة قال : إن همتى لعظيمة ان كان عندك بغيتى ، قال وما بغيتك ؟ قال حياة لاموت فيها ، وشباب لاهرم معه ، وغنى لا يتبعه فقر ، وسرور لايغيره مكروه قال لا أقدر على هذا قال فانفذ لشأنك وخلنى أطلب بغيتى ممن عنده همتى قال الاسكندر هذا أحكم من رأيت . ثم اعلم أن جملة ماتجمع فى بيت المال أربعة أنواع الأول زكاة السوائم والعشور ومايأخذه العاشر من المسلمين الذين يمرون عليه من التجار ومصرف هذا النوع ماذكره الله تعالى فى كتابه الكريم بقوله : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) . الآية وهم أصناف ثمانية قد سقط منهم المؤلفة قلوبهم لأن الله تعالى أعز الاسلام وأغنى عنهم ، والنوع الثانى . مايؤخذ من خمس الغنائم والمعادن ومصرف هذا النوع الأصناف التى ذكرها الله تعالى فى كتابه بقوله : (واعلموا انما غنمتم من شىء فان لله خمسه) . الاية فسهم الله ذكر للتبرك وسهم الرسول ﷺ سقط بموته وسهم ذوى القربى ساقط عندنا وهى قرابة رسول الله ﷺ فيصرف

اليوم إلى ثلاثة أصناف اليتامى والمساكين وابن السبيل ، وقال بعضهم . يصرف سهم الله تعالى إلى عمارة الكعبة ، وسهم رسول الله ﷺ يصرف إلى الخليفة لانه قد قام مقامه ، وسهم ذوى القربى إلى قرابته».

النوع الثالث ما يؤخذ مما أخرجته الارض وجزية الرؤس وما يأخذه العاشر من المستأمن من أهل الحرب ومن تجار أهل الذمة ، ومصرف هذا النوع عمارة الرباطات والقناطير والجسور وسد الثغور وكرى الانهار العظام التى لاملك لاحد فيها ، كجيحون ودجلة والفرات ، ويصرف إلى أرزاق القضاة وأرزاق الولاة والمحتسبين والمفتين والمعلمين وأرزاق المقاتلة ويصرف أيضا إلى رصد الطريق فى دار الاسلام عن اللصوص وقطاع الطريق وحاصله ان هذا النوع من المال يصرف إلى عمارة الدين وإصلاح دار الاسلام والمسلمين .

النوع الرابع مايؤخذ من تركات الموتى الذين يموتون ولم يتركوا وارثا أو ميت ترك زوجا أو زوجة فمصرف هذا النوع نفقة المرضى فى أدويتهم وعلاجهم وهم فقراء . وإلى اكفان الموتى الذين لامال لهم والى نفقة اللقيط وعقل جنايته ، والى نفقة من هو عاجز عن الكسب وليس له قريب يقضى عليه بنفقة ، وماأشبه ذلك . والواجب على السلطان ايصال الحقوق إلى أربابها ولا يحبسها عنهم من غير تفضيل ، ويسوى بينهم من غير ميل ، فان قصر فى ذلك اثم واستحق اثم الظلم ، وماسوى ذلك من الأموال التى يؤخذ بعقوبة أو جباية كالمكوس التى لم تكن فى زمن أحد من الخلفاء الراشدين وغيرهم من الملوك العادلين بل العشارون سوغوا للملوك أخذها ليأكلوا اموال الناس بالباطل فحرام سحت . فمن علم حرمته وأخذه فقد شاق الله ورسوله ، ومن اعتقد اباحته كفر ، وهذا النوع فى الديار المصرية كثير ، تولى غالب ذلك القبط ، ويحسنون ذلك للملوك ويأكلونه ولايحصل للملوك من ذلك غير الوزر والاثم ، ويستحقون بذلك اسم الظلم فى الدنيا والعذاب

فى الآخرة ، ولاسيما مايفعلونه فى المواريث ، فانهم ينتهبون تركة الميت نهبا ، ويحرمون الورثة ، ولا يصل من ذلك شىء لبيت المال . فالواجب على السلطان أن ينظر فى هذه الأشياء ، ويولى فى كل جهة من كان مشهوراً بالثقة والأمانة والدين لينظر فيه بالحق ، ولاسيما فى المواريث فانه يجرى فيها أمور لا يرضى بها أهل دار الحرب فضلا عن المسلمين فى دار الاسلام ، فاذا قصر السلطان عن النظر فى ذلك عاد الاثم عليه . وقال النبى ﷺ بئس الزاد إلى المعاد جور العباد . وقيل : أول حرف كتب فى أول ألواح التوراة ويل للظلمة . وقال الثعالبى : إذا كان الملك جائراً فسلام على سلامة الرعية !

الفصل العاشر

فى تاريخ سلطنته ومايدل عليه ذلك

اعلم أن الحكمة الالهية والقدرة الربانية اقتضت أن يظهر فى الوجود فى حال الفترة وظهور أهل الشر والفساد وتصدى أهل العناد لفساد أحوال العباد والبلاد سلطان من أهل السن الكامل ، والعقل الوافر ، والدين الظاهر والعلم الباهر ، المائل إلى الحق والصواب ، والعادل عن طريق الباطل والارتياب ، العامل بالسنة والكتاب ، لطفا من الله تعالى على العباد ورحمة على أهل البلاد ، وكان كنزاً مدخراً فى الكتاب ، ونوراً مستوراً فى الحجاب فأظهره الله تعالى من فضله الباهر ، ولطفه الزاهر ، حتى ألهم عبيده بأن لقبوه بالملك الظاهر ، أظهره الله عزوجل لاقامة دينه القويم ، واظهار صراطه المستقيم ، ولرفع المظالم التى استحكمت بين الناس ، وإفشاء العدل الذى وقع فيه اليأس ، ولتحكم شرائع هذا الدين ، وإجرائها على سنن الخلفاء الراشدين من السلاطين العادلين .

ولما انخمد نار الظلم من الطريقة الرفيعة ، ونادى مؤذن العدل . جاء الحق بمنعته المنيعة ، قام هذا الملك لاقامة أركان الشريعة ، عازما لاحياء موات

الدين ، وحازما بحفظ وضبط متين ، ناويا فى ذلك بأحسن النيات ، فى تحصيل فعل الخيرات متضرعا إلى الله وداعيا ، وإلى سبيل الهدى راجعا وساعيا وكان ذلك بجمع العلماء والقضاة وخليفة المسلمين ، وسائر الأمراء وعساكر الموحدين ، واستدعائهم منه قبول هذا المنصب الشريف : والركوب على هذا المركب المنيف ، وتكرر منهم فى ذلك السؤال والخطاب حتى أجاب بعد زمان بأحسن الجواب . وكانت الاجابة عليه واجبة اللزوم لتعينه لذلك بالخصوص والعموم وكان ذلك بدمشق المحروسة التى هى بهجة الشام ومقر الخلفاء والملوك الأعلام ودار الأنبياء والأولياء . ومقام العلماء والأصفياء مدينة ليس لها نظير فى الربع المسكون . مزينة بجامع لم تر مثله العيون . فى نهار الجمعة سيد الأيام بالآثار الواردة من سيد الأنام الذى ساعاته أفضل الساعات وأوقاته أكرم الاوقات التاسع والعشرين من شعبان المكرم بين المسلمين من سنة أربع وعشرين وثمان مائة من هجرة سيد المرسلين[1] فعند

---

(١) ونقل السخاوى فى الضوء عن ابن حجر أنه قال فى الظاهر ططر : (إنه كان يحب العلماء ويعظمهم مع حسن الخلق والمكارم الزائدة والعطاء الواسع) ثم قال ذكر لى أنه قبل أن يتسلطن فى ليلة المولد النبوى سنة ٨٢٤ هـ قد ضاقت يده لكثرة مصروفه وقلة متحصله حتى ان شخصا قدم له مأكولا ، فأراد أن يكافئه عليه فلم يجد فى حاصله خمسة دنانير وما وجد أحداً من خواصه يقرضها له بل كلهم يحلف أنه لايقدر عليها إلا واحداً منهم فلم يكن بين هذا وبين استيلائه (نيابة) على المملكة بأسرها وعلى جميع ما فى الخزانة السلطانية التى جمعها المؤيد سوى أسبوع . قال وأمرنى أن أكتب هذه الواقعة فى التاريخ فانها أعجوبة . ونقل عن ابن خطيب الناصرية أنه قال : (إنه كان مائلا للعدل وأهل العلم يحبهم ويكرمهم ويتكلم فى مسائل من الفقه على مذهب أبى حنيفة . وكان صاحبى حين كان أميراً) ونقل عن آخر : (أنه كان عارفا فطنا عفيفا عن المنكرات مائلا للعدل يحب الفقهاء وأهل العلم ويجلهم ويذاكر بالفقه ويشارك فيه وله فهم وذوق وبراعة فى حفظ الشعر باللغة التركية وإلمام بذلك فى الجملة مع إقدام وجرأة وطيش وخفة وكرم مفرط وملاحة شكل وكبر لحية سوداء

ذلك ارتفعت الدعوات وضجت الاصوات من كل الجهات فكان الناس حينئذ كالحجيج تلبي فى عرفات ، شكراً لما بعث الله تعالى إليهم بملك ينظر فيهم بالعدل والانصاف ، ويرفع من بينهم الظلم والاعتساف ، وتباشروا على هذا الخير العظيم والفضل الجسيم فأصبحوا وهم شاكرون بالفرح والسرور وداعون لهذا الملك بالبقاء والحبور ، ووصل الخبر بذلك إلى القاهرة يوم الأحد التاسع من رمضان المعظم ، وفرح الناس بهذا الخبر المفخم ، ودقت الكوسات للبشائر ، وفرحت الأمراء والعساكر ، وأصبح أهل الديار المصرية فى فرح وسرور ، وتزين الأسواق والدور وشكروا الله على هذه النعمة والأيادى التى عمت كل حاضر وبادى ، وارتفعت الأصوات بالدعاء فى كل نادى ، وسكبوا فى ذلك اليوم عبرات الفرح ، لما أذهب الله عنهم الهم والترح ، ودعوا الله تعالى بطول البقاء لهذا الملك وطول مدته ، واهلاك أعدائه وحساده بسطوته ؛ إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير .

وفى انعقاد السلطنة له فى دمشق المحروسة بشارة عظيمة ، وهى أنها كانت محل انعقاد الخلافة العامة ، فان الخلافة العامة بعد أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم لم تنعقد إلا فى الشام ، وهى انعقادها لأمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما ؛ وحكم معاوية فى دار الخلافة فى

وقصر جداً وبحة فى صوته بشعة) . وكان صارما فى محاربة البغاة قاسيا عليهم وكان من صغار مماليك الظاهر برقوق ، ولذا كان المقريزى منحرفا عنه على عادته فى رجال برقوق حيث كان برقوق أبعده عن الحكم بالبدر العينى كما أشار إلى ذلك أبو المحاسن ، تنقل فى أعمال الدولة إلى أن تسلطن فى أواخر شعبان سنة ٨٢٤ هـ وتوفى يوم الأحد رابع ذى الحجة من تلك السنة ودفن بجوار الليث بن سعد رضى الله عنه عن نحو خمس وخمسين سنة كما فى بدائع الزهور . تغمده الله بغفرانه . وهذا كلام الآخرين فى الظاهر ططر الذى ألف البدر العينى هذا الكتاب فى سيرته (ز) .

دمشق أربعين سنة ، منها وهو أمير فى عشرين سنة ، ومنها وهو خليفة فى عشرين سنة ، وكذلك سلطنة مولانا السلطان خلد الله ملكه فى دمشق أول سلطنة الاتراك ، فنرجو من الله تعالى أن تكون توليته مثل تولية أمير المؤمنين معاوية رضى الله عنـــه فى طول المدة وشمول الولاية سائر البـلاد ، وقد ثبت فى التواريخ أن ولاية بنى أميـة عمت سائر أقاليم المسلمين وبلادها ، بخـلاف بنى العباس فان ولايتهم ما شملت بلاد الغرب ولذلك خرجت عن ولايتهم الديار المصرية والشاميـة والحجازية وغير ذلك فى أيام العبيـديين ، وفى سلطنته فى الشام سر عظيم ، لايدركه إلا أهـل الذوق . ولم يتول أحـد من سـلاطين الترك الذين ملكوا الديار المصرية بعد بنى أيوب وهو فى الشام غير مولانا السلطان خلد الله ملـكه . وذلك لما أراد الله له من الخير الواسع واليمن والبركة وطول المدة ان شاء الله تعالى .

وكانت توليته فى ساعة أجمع عليها أهل الحساب أنها تدل على طول أيام مولانا السلطان(١) خلد الله ملـكه مع عافية وأمن وسرور . وعلى ظهور العدل بين الناس وانخماد الظلم والعسف ببركة وجود هذا الملك ثبت الله أركان دولته وأيام سطوته وعزته . وحرسه بعينه التى لاتنام . وكلأه فى كـنفه الذى لايرام . إنه على ذلك قدير . وبالاجابة جدير :

انتهى مافى الاصل المحفوظ فى مكتبة خسرو باشا وكان ختام طبعه فى ٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٠هـ . والحمد لله أولا وآخرا وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبـــه أجمعين

---

(١) خابت الظنون ولم تزد مدة سلطنته على ثلاثة أشهر إلا أياما قلائل (ز)

فهرس الروض الزاهر

تصويب

١٤ — ١٠ : لكاد الاسلام أن يكون

